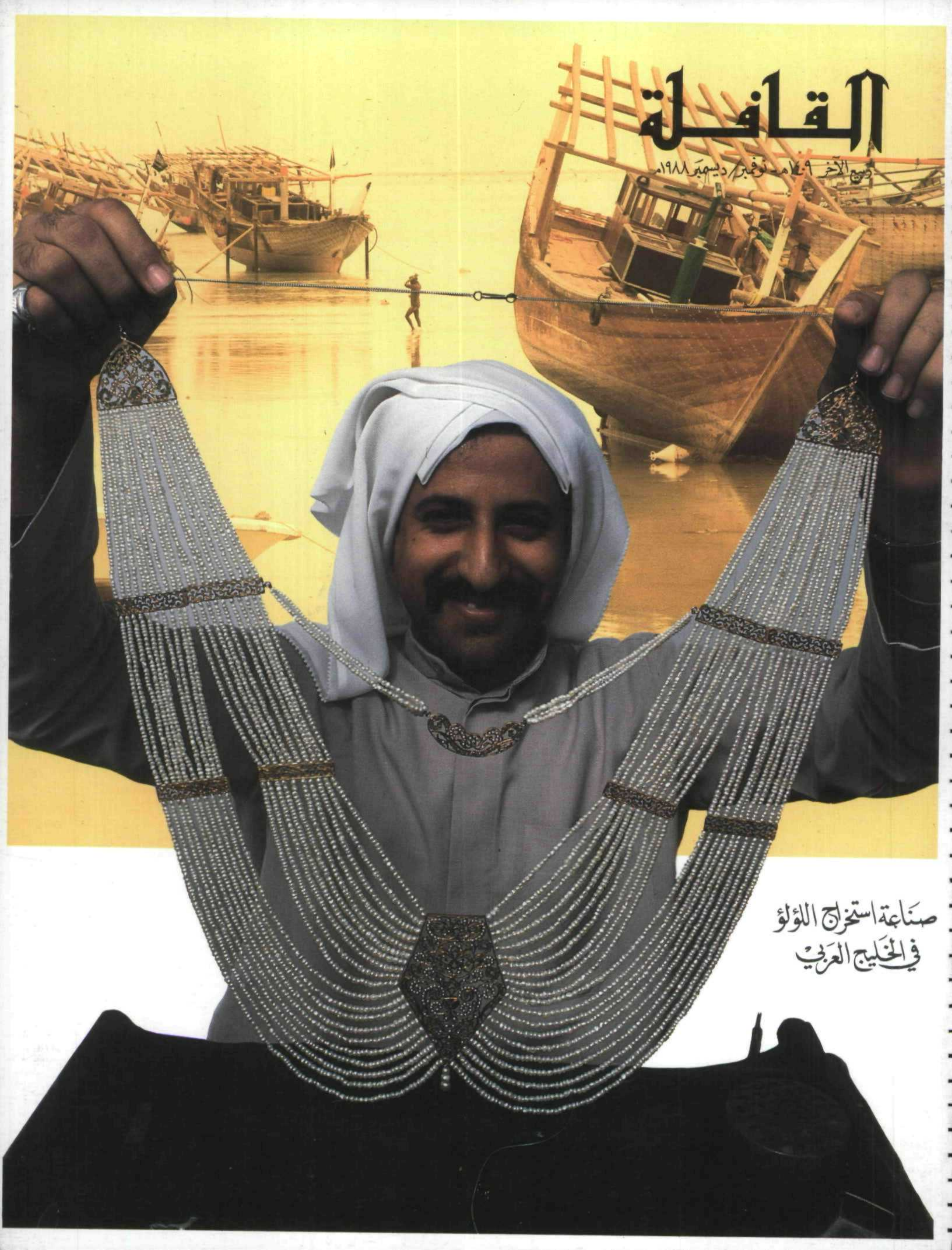


القافلة

ربيع الآخر ١٤٠٩هـ - نوفمبر/ديسمبر ١٩٨٨م

صناعة استخراج اللؤلؤ في الخليج العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

القافلة

THE CARAVAN - NOV./DEC. 1988

ربيع الآخر ١٤٠٩هـ - نوفمبر/ديسمبر ١٩٨٨م
العدد الرابع / السنة السابعة والثلاثون

مجلة ثقافية
تصدر شهرياً عن شركة أرامكو لموظفيها
إدارة العلاقات العامة

*

توزع مجاناً

*

المدير العام: فيصل محمد البسام
المدير المسؤول: اسماعيل ابراهيم نواب
رئيس التحرير: عبدالله حسين الغامدي
المحرر المساعد: عوني أبوكشك

*



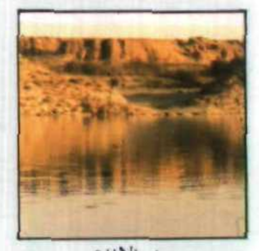
صناعة استخراج اللؤلؤ



الشاعر احمد قنديل



الصراصير حشرات لا تقهر



عيون الافلاج



نهاية المغامرة

العنوان
صندوق البريد رقم ١٣٨٩
الظهران - ٣١٣١١
المملكة العربية السعودية
هاتف: ٨٧٥٦٣٩٢

تصميم وطباعة شركة مطابع المطوع - الدمام - المملكة العربية السعودية
DESIGNED AND PRINTED BY AL-MUTAWA PRESS CO. - DAMMAM



صناعة استخراج اللؤلؤ في الخليج العربي

بقلم: علي المرهون / هيئة التحرير
تصوير: علي المبارك / أرامكو

لم تكن صناعة استخراج اللؤلؤ في الخليج العربي، مورداً معيشياً واقتصادياً فقط... بل كانت نمطاً من أنماط العيش، واسلوباً من أساليب الحياة، تركت بصماتها على حياة انسان الخليج العربي. ونظراً لعراقة هذه المهنة، وتنوع أعمالها من تمويل واستخراج، وتصنيع وتسويق.. فقد عرفت مرحلة «التخصص المهني» كأي صناعة أخرى متكاملة راسخة الجذور. كما أعطت الدليل على مدى قوة الصبر والاحتمال التي اتسم بها الأجداد في مكابدتهم لأهوال البحر ومخاطره، وادراكهم أيضاً لأهمية استثمار هذا المورد الحيوي المتجدد الذي حباهم الله به، والذي جذب بريقه الأخاذ أنظار العالم إلى هذه المنطقة منذ زمن بعيد.

ترجع شهرة لآلىء الخليج العربي، الى عصور الحضارات القديمة التي توالت على هذه المنطقة منذ العصور الموغلة في القدم، وتدل الشواهد التاريخية أن صناعة استخراج اللؤلؤ كانت معروفة منذ ما يزيد على ٤٠٠٠ عام في هذه المنطقة. وقد جذب بريق اللؤلؤ أنظار العالم الى حوض الخليج منذ العهد الآشوري وحتى العهد البرتغالي، وكان حافزا على التنافس بين القوى البحرية السائدة آنذاك، إذ كان يمثل موردا تجاريا هاما من موارد تجارة الشرق التقليدية.

وقد عثر على لوح حجري مسماري في منطقة «اور» الكلدانية، يتحدث عن كيس يحتوي على عيون السمك «اللؤلؤ» قد جلب من أرض دلمون. مما يدل على أن الانسان، كان قد أقدم على استخراج اللؤلؤ والاتجار به منذ زمن بعيد، وربما كان اللؤلؤ يستخدم في سومر وآشور وبابل في وادي الرافدين كحلي للنساء. وقد أشار الرحالة «ابن بطوطة» الى الغواصين وأحوالهم، حين وصف كيفية الغوص، عندما حطت به عصا الترحال على شواطىء الخليج سنة ١٣٣٠م. ويذهب بعض المؤرخين الى أن من بين أسباب الغزو البرتغالي لمنطقة الخليج في القرن السادس عشر، كان الرغبة في السيطرة على تجارة اللؤلؤ التي كانت تدر أرباحا طائلة، ولقد أشار قائد الأسطول البرتغالي الى أهمية مغاصات اللؤلؤ، وأرسل كمية من اللآلىء الى ملك البرتغال.

ماهو اللؤلؤ؟

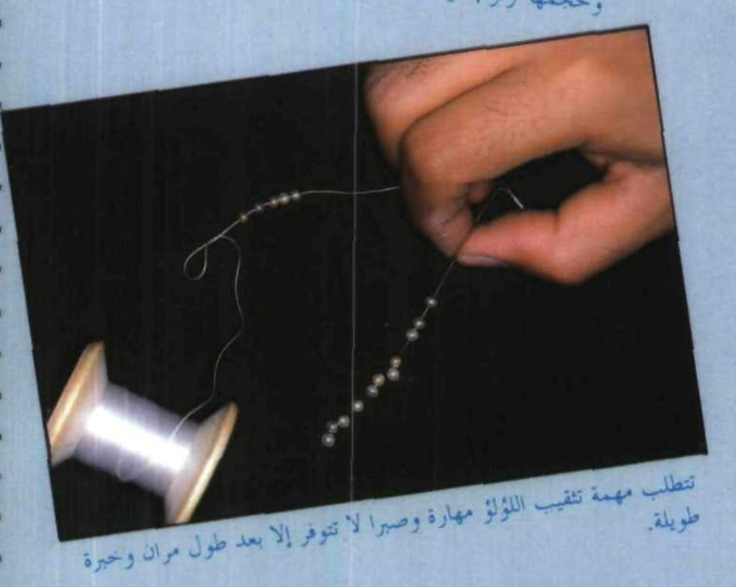
اللؤلؤ هو نوع من الأحجار الكريمة النادرة، التي تنشأ نشأة عضوية، ويتميز بالصلابة والاستدارة واللمعان، وينمو في أصناف معينة من المحار والصدف ذو القوقعتين، التي تعيش في داخلها الرخويات، وهذه الرخويات تمتلك طبقة داخلية مصنوعة من مادة براقة تدعى «عرق اللؤلؤ مركبة من معدن Aragonite» وهو ضرب من كربونات الكالسيوم، بالاضافة الى مادة عضوية غضروفية. وينشأ اللؤلؤ عندما يدخل الصدفة.. جسم غريب ما.. مثل حبة رمل، أو كائن حي متطفل، أو أي ميكروب آخر فيأخذ الحيوان الرخوي الذي يسكن داخلها بعزله تدريجيا، وذلك باحاطته وتغليفه بطبقات من مادة عرق اللؤلؤ البراقة، تطبيقا لمبدأ غريزة الدفاع عن النفس، وهكذا ينشأ اللؤلؤ نتيجة للنمو غير الطبيعي الذي يأخذ مجراه داخل الصدفة.

مغاصات اللؤلو

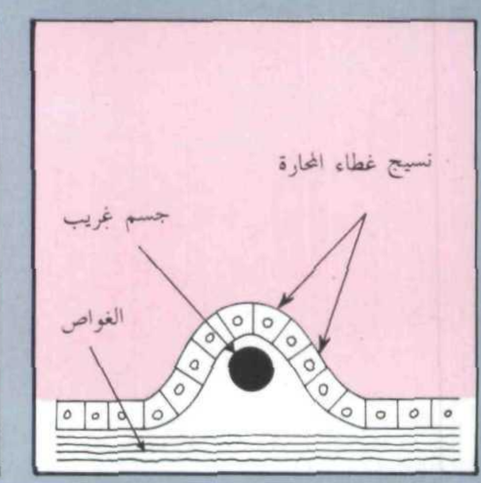
«يعيش اللؤلؤ في وسط المحار، الذي تحتضنه المياه سواء



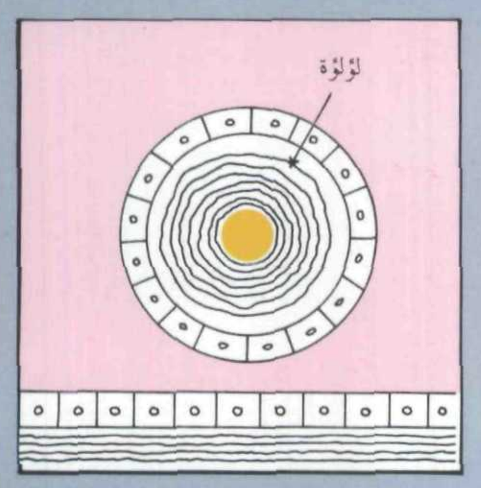
اتسم التصنيف الفني للؤلؤ بدرجة كبيرة من التخصص، حسب معايير فنية يعرفها أرباب المهنة ويشمل وضع اللؤلؤ في المحارة وحجمها ولونها وشكلها ونوعها وجمالها.



تتطلب مهمة تثقيب اللؤلؤ مهارة وصبرا لا تتوفر إلا بعد طول مران وخبرة طويلة.



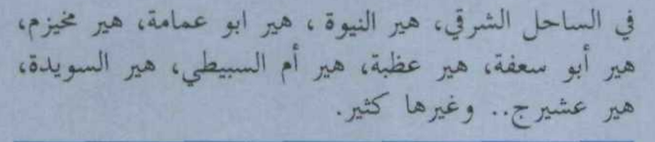




العذبة منها أو المالحة وأشهر اللآلىء في العالم، ما تم استخراجه من المياه المالحة الدافئة، حيث يمتاز بدرجة عالية من اللمعان والتلون القزحي، كنتيجة لانعكاس وإنكسار ضوء الشمس، الذي يسقط على سطح اللؤلؤة بسبب تشابك نسق الألوان البلورية. أما اللؤلؤ المستخرج من المياه العذبة فتعوزه الصلابة الشديدة. وأشهر مغاصات اللؤلؤ في العالم في البحر الأحمر، وجنوب المحيط الهادىء، والبحر الكاريبي. ولكن أفضل أنواعه تأتي من منطقة الخليج العربي، حيث يساعد التكوين الجيولوجي لقاع الخليج، وحرارته، وضحالة مياهه، وملوحتها في تربية محار اللؤلؤ ونموها. وتشغل مغاصات اللؤلؤ، نصف ضفة الخليج الغربية تقريبا، اذ تبدأ عند جزيرة أبو موسى في مواجهة إمارة الشارقة، وتنعطف بمحاذاة الساحل مرورا بجزيرة حالول ثم أمام ساحل دولة قطر وأرخبيل جزر البحرين، التي تشتهر باللآلىء النفيسة وخاصة في الشمال والشرق بسبب وجود عيون المياه العذبة المتفجرة في هذه «الهيرات» ثم قبالة ساحل المملكة الى رأس تنورة وتنتهي أخيرا قرب الكويت.

ويزدهر المحار في المياه التي يتراوح عمقها بين ٨ أمتار و٣٦ مترا، وذلك باختلاف مواقع المغاصات، كما توجد في بعض الأماكن بعض الروابي الواقعة تحت الماء على عمق يتراوح ما بين ثلاثة وسبعة أمتار. وتبعد المغاصات عن الساحل مسافات مختلفة قد تصل الى ما يزيد عن ١٠٠ كيلومتر.

وتقسم المغاصات في الساحل العربي من الخليج، الى قسمين، الأول ما بين رأس تنورة ودبي، ويضم ما يزيد على ١٨٠ مغاصا، والثاني ما بين رأس تنورة والكويت ويضم ما يزيد على ٥٥ مغاصا، وتعرف المغاصات «بالهيرات».. ومفردها «هير» ويجري تحديد معالمها عن طريق علامات برية على الساحل المقابل، أو عن طريق قياس عمقها بواسطة خيط تتدلى منه قطعة من الرصاص يعرف «بالبلد» ومن أسماء الهيرات المعروفة التي خبرها بحارة المملكة العربية السعودية


في الساحل الشرقي، هير النيوة ، هير ابو عمامة، هير مخيزم، هير أبو سعفة، هير عظبة، هير أم السبيطي، هير السويدة، هير عشيرج.. وغيرها كثير.

كيفية الغوص

لقد توارثت الأجيال المتعاقبة، أسرار صناعة استخراج اللؤلؤ. وطبقوا أساليب الغوص القديمة نفسها، واستخدموا الأدوات البسيطة ذاتها، وذلك على إمتداد حقب الزمن. ويحفظ لنا التاريخ وصف الرحالة «ابن بطوطة» في الثلث الأول من القرن الرابع عشر الميلادي، لعملية صيد اللؤلؤ، بكثير من التفصيل التي لا تخلو أحيانا من المبالغة، والتي ظلت

سائدة حتى عهد قريب، قبل ركود هذه الصناعة.

ويبدأ موسم «الغوص الكبير» في شهر يونيو ويستمر حتى شهر أكتوبر، تقريبا، ويبدأ الإبحار في يوم مشهود يسمى «بالدشة» تمتزج فيه الأهازيج والدعوات بالدموع . أما عملية الغوص التي تبدأ من الصباح حتى مغيب الشمس، فتتلخص بالآتي:

ينزل «الغيص» الى عرض البحر، ممسكا بحبل طويل، يكون طرفه عند «السيب» فوق السفينة، ويشده الى مقر البحر حجر كبير يربط برجله، وذلك للاسراع بهبوطه الى القاع الى عمق يتراوح عادة بين ٩ أمتار و٣٧ مترا، ويسد أنفه بملقط بدائي مصنوع من الخشب أو العظام لمنع دخول الماء الى جيوب الأنف يعرف «بالفطام»، ويعلق في رقبته زنبيلا يسمى «الديين» ، لجمع المحار، وقد يلبس قفازا مصنوعا من الجلد يعرف باسم «الخبط» وعندما يصل الى القاع، يفصل الثقل عن رجله، حيث يقوم «السيب» بسحبه الى السفينة. وفي قاع البحر يفتح الغواص عينيه ويتثبت بالأرض لجمع المحار المنتشر على القاع، أو الملتصق بالصخور والشعاب المرجانية، والأعشاب البحرية، معتمدا على يديه للانتقال من مكان الى آخر ورجلاه مرفوعتان الى أعلى، ويتفاهم الغواص مع زملائه وهو في قاع البحر «بالغمغمة». وعندما يضيق نفسه أو يمتلىء الزنبيل، يجذب الحبل بشدة، فيتنبه «السيب» ويسحبه الى سطح الماء، ويكون عندها الغواص قد بلغ من الاجهاد مبلغه، ويقوم فورا بازاحة الفطام عن أنفه لكي يتنفس ويترك «الديين» للسيب لكي يفرغ حمولته على سطح السفينة ويبقى الغواص قليلا ليملأ رئتيه من الهواء. وذلك قبل أن يقفل راجعا الى قعر البحر مكررا العملية التي تعرف «بالتبة» حتى غروب الشمس. والمدة التي يستطيع الغواص مكوثها تحت الماء تختلف بين شخص الى آخر، وتتراوح من دقيقتين الى أربع دقائق. وبعد الانتهاء من عملية الغوص، في مساء كل يوم يجتمع البحارة على ظهر السفينة، ويبدأون بفلق المحار، بواسطة سكاكين معكوفة تسمى «مفاليق»، وذلك لاستخراج ما قد يرزقهم الله به من لآلىء، وفي اليوم التالي يكررون العملية حتى ينتهي الموسم، أو ينفذ الطعام أو الشراب الذي لديهم، وتسمى رحلة العودة «بالقفال»، حيث يطلق كبير الغواصين بندقية أو مدفعا، كعلامة لانتهاء الموسم. ويوجد فصل اختياري للغوص يعقب «الغوص الكبير» ويمتد من ثلاثة أسابيع الى شهر ويطلق عليه اسم «الردادة».

ولقد لخص لنا الشاعر الجاهلي المسيب بن علس عملية الغوص وتفاصيلها في قصيدة وصفية دقيقة، تصور لنا عملية صيد اللؤلؤ والصراع الذي يختلج في صدر البحار بين الأمل واليأس والتي مطلعها:

كجمانة البحري جاء بها
غواصها من لجة البحر
صلب الفؤاد رئيس أربعة
متخالفي الألوان والنجر
فتنازعوا حتى اذا ما اجتمعوا
ألقوا اليه مقالد الأمر
وعلت بهم سجحاء خادمة
تهوي بهم في لجة البحر
حتى اذا ما ساء ظنهم
ومضى بهم شهر الى شهر
ألقى مراسيه بتهلكة
ثبتت مراسيها فما تجري
فأصاب منيته فجاء بها
صدفية كمضيئة الجمر
يعطي بها ثمنا ويمنعها
ويقول صاحبه: ألا تشري؟
وترى الطري يسجدن لها
ويضمها بيديه للنحر
فلتلك شبه المالكية اذ
طلعت ببهجتها من الخدر



الغواص والأدوات التي يستخدمها

تصنيف وفرز اللؤلؤ

نظرا لعراقة صناعة اللؤلؤ في الخليج، وتكامل عملياتها الانتاجية والتسويقية، فإن التصنيف الفني للسلعة إتسم بدرجة كبيرة من التخصص، والدقة الشاملة في الوصف والفرز، حسب معايير فنية يعرفها أرباب المهنة وتجارها. وتصنيف اللؤلؤ يشمل عدة وجوه منها.. وضع اللؤلؤ في المحارة، وحجمها، ولونها، وشكلها، ونوعها، وجمالها. ويستخدم تجار اللؤلؤ منخلا خاصا مكونا من سبع أوان نحاسية تعرف باسم «الطوس» وذلك لتحديد أحجام اللؤلؤ وفرزها تباعا. فاللآلىء التي يحتجزها المنخل العلوي تسمى «رأسا» وتعرف باسم «الدانات» وهي غالية القيمة. أما التي تحتجزها الطاسة الثانية فتسمى «بطنا» وتستخدم لتزيين العقود، وفي صنع الاقراط. والتي في الطاسة الثالثة تدعى «ذيلا» وتمثل غالبية اللؤلؤ. ثم يأتي تباعا السحتيت والناعم، ثم البوكة، وأخيرا الخاكة.. (وهو تراب اللؤلؤ، الذي يقوم البعض بسحقه لتركيب الأدوية).

كما يتخذ اللؤلؤ أشكالا عدة أثناء تكونه، وذلك حسب وضع المحارة، ونشاط الحيوان الهلامي، والموقع. ومن أهم



تتعدد أسماء السفن والمراكب البحرية بتعدد الأعمال التي تقوم بها. ومنها مثلا «واربة» التي تصنع من جريد النخيل، وتستخدم لدخول مصائد الأسماك التقليدية المعروفة خليجيا بالحظرة.

الأشكال الشائعة.. الشكل الكروي الكامل الاستدارة كلؤلؤة الجيوان، والشكل النصف الكروي، كالكرة المقطوعة من النصف كلؤلؤة البطن، والشكل التنبولي المشابه لفاكهة الكمثرى. والشكل البيضي المشابهة لشكل البيضة، والربياني المشابه لشكل الربيان، والطبلي والعدسي وغيره.

ويلعب اللون دورا مهما في تحديد قيمة اللؤلؤ، لأنه يضفي جمالا على هذه الأحجار الكريمة ومن أهم الألوان المتعارف عليها في منطقة الخليج «المشير» وهو اللون الأبيض المشوب بحمرة وردية، وهو من أكثر الألوان جمالا وأغلاها سعرا، و «النباتي»، و «السماوي»، وهو يشبه زرقة السماء المخففة، و «الوردي» و «السنقباني»، وهي لفظة هندية، و «القلابي» و «البصلي»، و «الاشقر»، و «الاسود».

كما تتفاوت أثمان اللآلىء حسب جودتها واستدارتها وجمالها، وتتدرج أثمانها من هذه الناحية على النحو التالي:

- **الجيوان**، وهي من أجمل اللآلىء، فهي كاملة الاستدارة وتمتاز بالبريق واللمعان ولونها أبيض تشوبه حمره.
- **الخشن**، ويأتي في الدرجة الثانية، بعد الجيوان، وهو أصغر حجما.
- **القولواه**، وهي لؤلؤة صافية ولامعة ولكنها غير مستديرة.
- **البدلة**، لها أشكال مختلفة وبها رصعة أحيانا، وتكون بيضاوية الشكل أو نصف كروية.
- **الناعم**، وهي مجموعة من اللآلىء الصغيرة الجيدة تباع عادة بالجملة.
- **البوكة**، لؤلؤة غير كاملة الاستدارة، وهي مختلفة الأشكال والألوان، وحجمها صغير.
- **الفصوص**، وهي اللآلىء الملتصقة بالمحارة، وتحتاج لمهارة دقيقة لتخليصها من الصدفة.

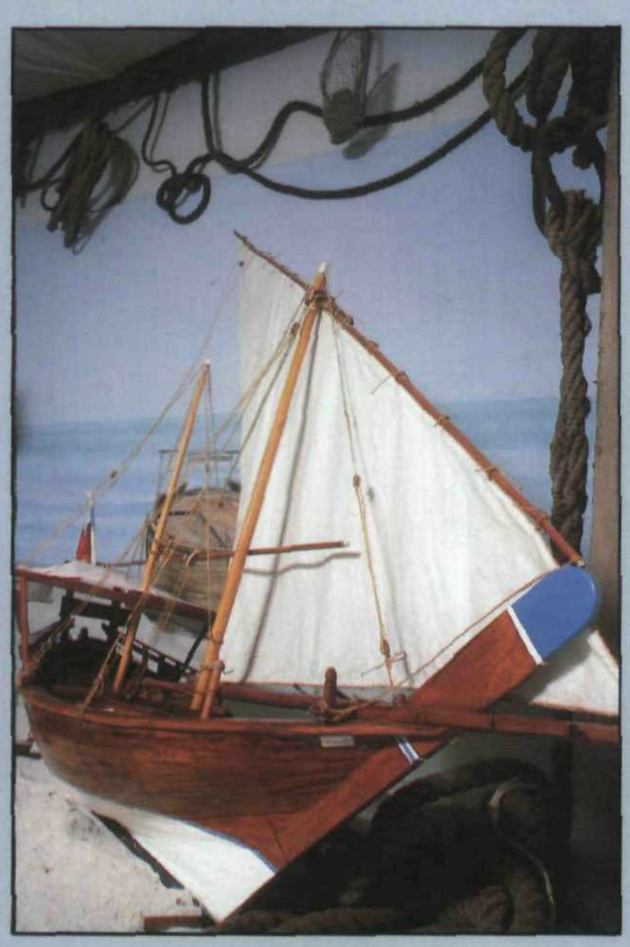
وزن اللؤلؤ وتسعيره

يمر اللؤلؤ بعد تصنيفه وفرزه حسب معايير الحجم واللون والشكل والجودة والجمال، بعدة عمليات فنية وحسابية، وذلك لتقدير أثمانه، باستخدام أوزان دقيقة. والميزان المتعارف عليه، هو وزن «بونه» نسبة الى مدينة بونه بالهند ويتكون من المثقال وأجزائه، وذلك حسب التفصيل الآتي:

المثقال = ٢٤ رتى
الرتى = ١٦ آنة
٠,٢٥ المثقال = ٦ رتى
٠,٢٥ الرتى = ٤ آنات

ويتم صنع الأوزان حتى ستة مثاقيل من مادة بلورية، بينما تصنع المثاقيل من الحديد وتستخدم لوزن اللآلىء المنفردة «الدانات»، أو لوزن مجموعات معينة.

ويستخدم نظام حساب «الجو» كوحدة رئيسية في تحديد سعر اللؤلؤ بعد معرفة الوزن، وهو طريقة حسابية دقيقة متفق عليها بين تجار اللؤلؤ، لتحديد الأسعار. ولقد وضعت



ازدهرت حرفة صناعة السفن وصيانتها في الخليج ابان فترة ازدهار الغوص.

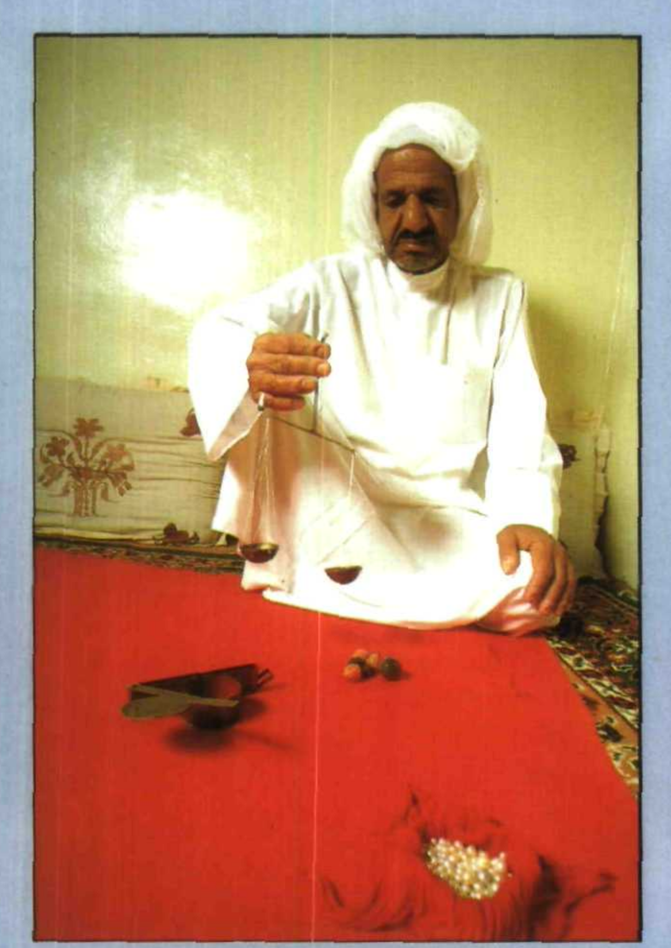
كتيبات خاصة تحوي جداول حسابية مفصلة، تبين عدد الدانات وعدد الأجواء التي تحتويها، ومن ثم تتم عملية تقييم الأسعار على هذا الأساس. ومما لا شك فيه أن وضع هذه الجداول الحسابية، التي تعتمد عليها صناعة الغوص بأكملها، يستلزم المهارة والدراية والصبر وكل ذلك لا تتوافر إلا في أشخاص يمتلكون قدرات علمية وذهنية وحسابية جيدة.

النوخذة

نظرا الى أن «النوخذة» هو رئيس الوحدة الانتاجية لعملية الغوص، فهو الشخص الذي يقوم بجمع المحصول والحفاظ عليه، والمؤتمن من قبل البحارة لبيع اللؤلؤ وتقسيم ثمنه على الجميع، وذلك وفق أصول وأعراف مهنية متفق عليها لدى الجميع. فيأخذ لنفسه الخمس من قيمة ما تم استخراجه من اللؤلؤ، ويقسم الباقي على البحارة، بعد أن يحسم قيمة ما أكلوه أو شربوه في زمن الغوص. ويعطى الغواص ٦٠٪ من الباقي والسيب ٣٠٪، ويعطى الرضيف نصف ما يعطى السيب. أما التّباب فليس له غير طعامه وشرابه، والخبرة التي اكتسبها في مجال أعمال البحر. وهناك شخصان لكل منهما سهم، أحدهما طباخ السفينة، والآخر «النهام» وهو مطرب الرحلة، وصاحب الصوت الشجي الذي على نغماته يعمل الجميع ويتسامرون. وهذا التقسيم ينطبق على الذين يستخرجون اللؤلؤ لحسابهم. أما اولئك الذين يستأجرون السفينة، ويستدينون المال، ويقومون بالغوص لحساب غيرهم، فيدفعون خُمْسَ قيمة المحصول لمالك السفينة، ويتقاسم الغواصة الثلاثة أخماس الباقية وفق الطريقة التي جرت الاشارة اليها.

التنظيم المهني لصناعة اللؤلؤ

إن عملية إستخراج اللؤلؤ كأي عملية اقتصادية أخرى، تتطلب وجود عناصر إنتاجية تتمثل في توافر رأس المال الكافي لتجهيز السفن واعدادها اعدادا جيدا للقيام برحلة الغوص، وخاصة من حيث قدرتها على المكوث في البحر مدة طويلة قد تصل الى أربعة أشهر، وهذا يتطلب تزويدها بالمؤن اللازمة من تمر وسمن وقهوة وسكر وشاي وغيرها من المواد، وكذلك توفير المال اللازم «لاقراض» الغواصين بعضا من أجرهم مقدما يسمى «تسقاما» للانفاق على ذويهم خلال فترة غيابهم الطويلة في عرض البحر وهذا ما جعل من عملية تمويل الغوص أمرا مكلفا، لا يقدر عليه الا الطواويش وذوو الاملاك، من كبار تجار اللؤلؤ، والذين يستغلون الوضع عادة لصالحهم، وخاصة إذا عرفنا أن حجم الثروة التي يحلم بها



الطواش، عبدرب الرسول محمد غنام، من تاروت، احد الطواويش الذين عاصروا فترة ازدهار الغوص وانتكاسته.

البحارة، تعتمد على الحظ في جانبها الأعظم. فقد كان النواخذة ـــ ولا سيما الصغار ـــ منهم يلجأوون الى كبار الطواويش بغية تمويل عمليات الغوص من إعداد السفن وصيانتها، وتجهيزها بالمؤن والزاد وإقراض الغواصين مقدما بعضا من الأجر. وقد لا يسعف الحظ الحملة فتعود خالية الوفاض إلا من بعض اللآلىء الصغيرة التي لا تغطي تكاليف الرحلة، مما يضطر النواخذة الى بيع مراكبهم للتجار، ومن ثم يعملون بها كأجراء مستخدمين مهاراتهم وخبرتهم العملية. وهكذا أصبح الطواش (تاجر اللؤلؤ) شيئا فشيئا هو المسيطر على ثروة اللؤلؤ، والفائز بحصة الأسد من أثمانها. كما تقتضي هذه الصناعة وجود قوى عاملة، متعددة المهارات والخبرات، تتميز بالجلد على مكابدة الأهوال وركوب المخاطر. ويأتي على رأس الهرم «النوخذة» الذي يتمتع بسلطات مطلقة على ظهر السفينة. فهو الآمر الناهي في هذه الوحدة الانتاجية العائمة على سطح الماء، ويمتلك حق إتخاذ قرارات خطيرة قد تصل الى حد الحياة أو الموت بالنسبة لبحارته. وعملية استخراج اللؤلؤ يصعب أن يتولاها فرد واحد، وإنما يقوم بها أفراد لم يلبثوا أن اتخذوا صفة جماعية، باعتبارها المهنة الاساسية في مجتمعهم. وقد غرس فيهم ذلك «روح الجماعة» والتضامن في السراء والضراء، إذ أنهم يواجهون مصيرا مشتركا،

ويحدوهم أمل واحد في الفوز والسلامة. فكان لا مناص ان تنتظمهم جملة من الأعراف يتواضعون عليها سواء في عمليات التمويل والتجهيز، أو الابحار، وتوزيع الأجر، أو من ناحية التقسيم الفني للعملية الانتاجية، ومنها تقسيمات البحارة، وتصنيفهم من حيث المكانة والاهمية، وهم يأتون في الأهمية حسب التسلسل الآتي:

• **النواخذة**، قواد السفن وقباطنتها، وهم العارفون بأسرار البحر، ومواقع اللؤلؤ، بفضل استخدام النجوم، ويمتلكون حسا قياديا واضحا يفرض نفسه على الجميع. وقد يكون النوخذة، هو مالك السفينة أو مؤجرا لها، أو مجرد مستخدم يؤدي عمله لصالح المالك.

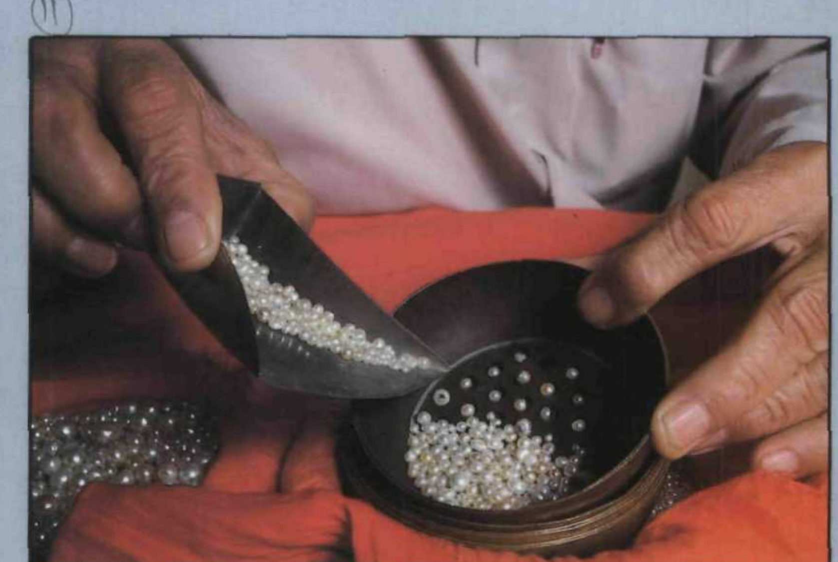
• **مرتبة الغواصين**، ومهمتهم هي البحث عن اللؤلؤ، بجمع المحار والصدف. وهم عماد المهمة، ويتعرضون للكثير من المخاطر. يليهم أهمية «السيوب» ومفردها «سيب» وهم الذين يشرفون على عملية نزول الغواصين وخروجهم من قاع البحر، بواسطة الحبال، ويتسم عملهم بالدقة والحساسية، إذ تتوقف حياة الغواصين عليهم، فأي إهمال أو سهو بسيط قد يودي بحياة الغواص تحت الماء بسبب الاختناق. ويسمى مساعد السيب «رضيفا».

• **مرتبة التبابة**، ومفردها «تبَّاب»، وهم الذين يرافقون سفن الغوص للخدمة، ولا يتقاضون شيئا من الأجر، وغالبا ما يكونون من الصبيان.

ولقد حافظت مهنة الغوص على سماتها وتقاليدها المهنية، سواء من جهة «تقسيم العمل» أو تنظيمه. ونتيجة لعراقة هذه المهنة فقد عرفت مرحلة «التخصص المهني» كأي صناعة أخرى راسخة الجذور. فهناك مرحلة التمويل، ومرحلة الانتاج، ومرحلة التسويق محليا واقليميا وعالميا، وغيرها من الأعمال المساندة.

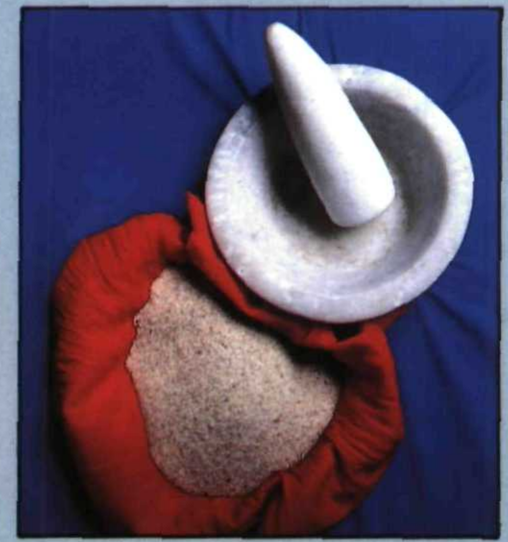
تسـويق اللـؤلؤ

كانت البحرين «المركز» الاقليمي الرئيسي لتجارة اللؤلؤ، يؤمها التجار والطواويش من مختلف مناطق الخليج والدول المجاورة، وغدت «بومباي» بالهند مركزا عالميا لتصنيع اللؤلؤ وإعداده للتصدير للدول الخارجية، ذات القدرة الشرائية العالية. وكان يجري تصنيف اللؤلؤ حسب جودته وأسعاره بأساليب معروفة ووضعه في علب خاصة. وكان يجري تلبية مختلف احتياجات الأسواق العالمية من لآلىء الخليج حسب اهتمامات كل سوق، وبما يتفق وأذواق المشترين، حيث كان النوع الممتاز يلقى رواجا لدى الأوساط الراقية في بريطانيا وفرنسا. كما كان يصدر الى الولايات المتحدة الاميركية بأثمان

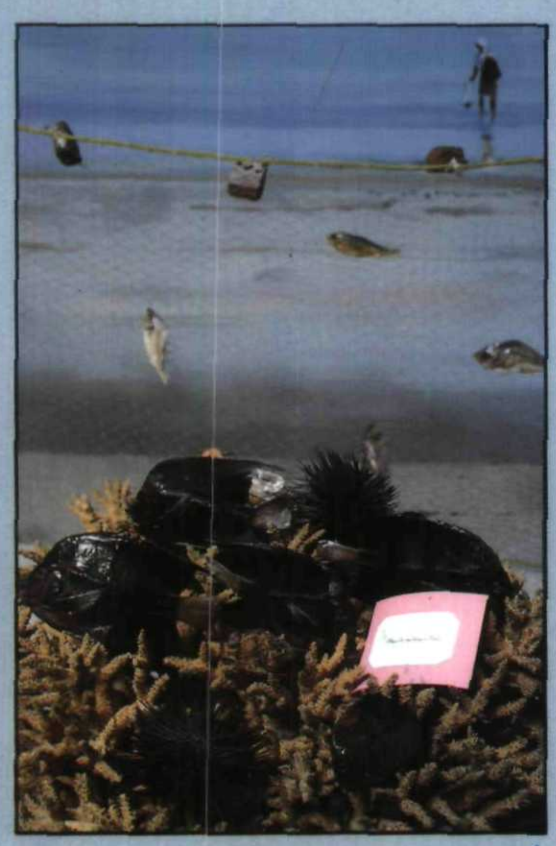


يستخدم تجار اللؤلؤ منخلا خاصا مكونا من سبع أوان نحاسية تعرف باسم «الطوس» لتحديد احجام اللؤلؤ وفرزها تباعا.

السيد محمد حسن العريض من اشهر تجار اللؤلؤ بالبحرين، الذين لا يزالون يمارسون المهنة، ويبدو في الصورة وهو يقوم باستخدام الميزان مستخدما المثاقيل.. كوحدات للوزن.



تستخدم «المسحنة» لطحن السحتيت من اللؤلؤ الذي لا يمكن بيعه لصغر حجمه، وذلك للأغراض العلاجية.



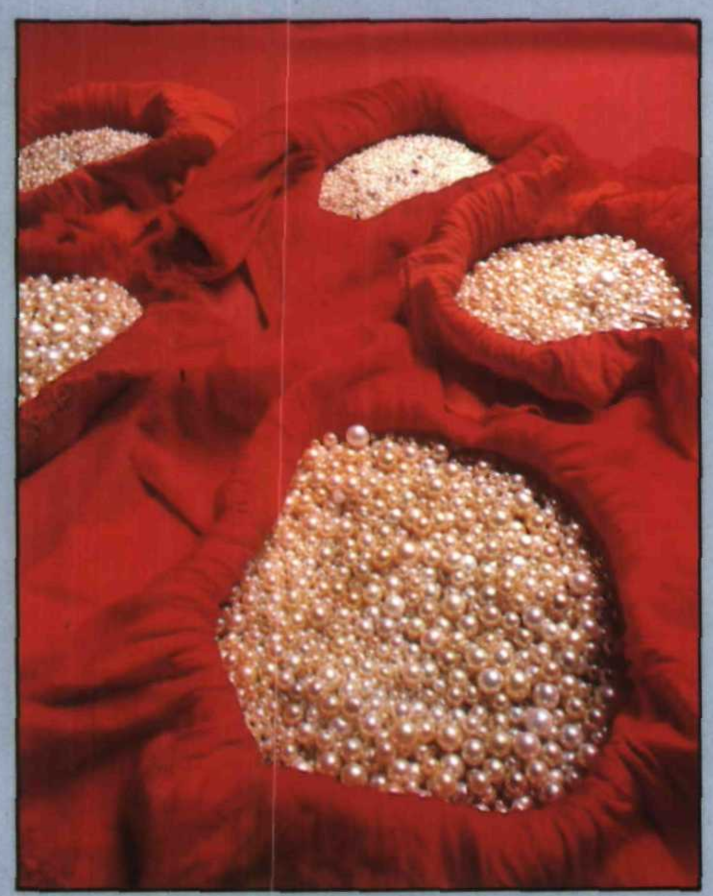
وفر قاع الخليج الذي تنمو فيه الشعاب المرجانية، مجالا جيدا لنمو محار اللؤلؤ الجيد، منذ العصور القديمة.

باهظة. أما النوع الثاني فكان يصدر الى المانيا، والنوع الثالث الى اسبانيا. أما النوع الأبيض فكان يصدر الى بلاد الصين.

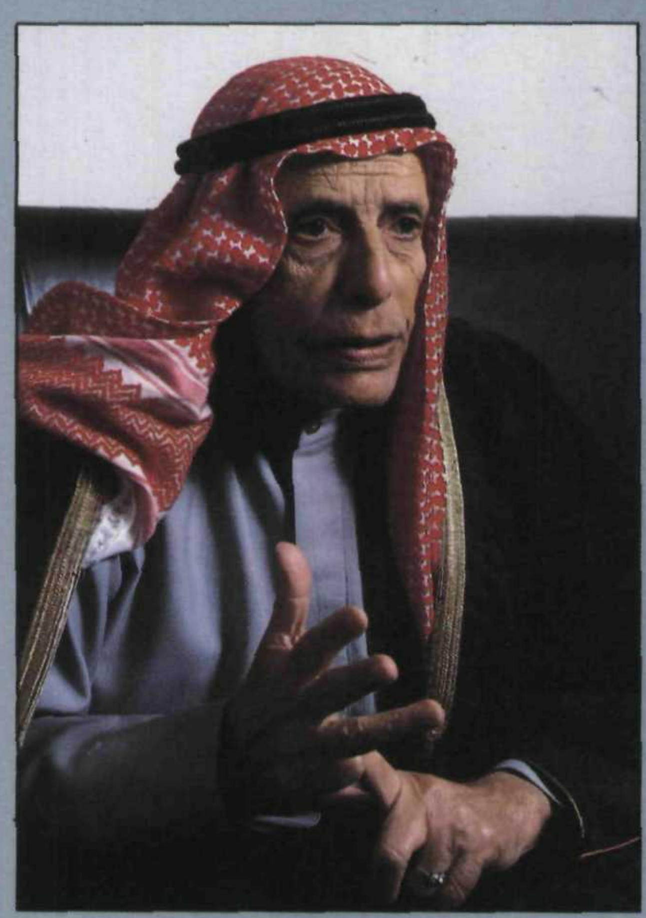
اقتصاديات اللؤلؤ

كان البحر المجال الحيوي الوحيد الذي إستأثر بجل نشاطات الانسان الخليجي، وخاصة في المناطق التي تخلو من الواحات الزراعية «كالكويت وقطر، بحيث شغلت عملية البحث عن اللؤلؤ واستخراجه والاتجار به، جميع أوجه الحياة الاقتصادية والمعيشية. ولقد قدرت قيمة اللؤلؤ المصدر من الخليج سنة ١٨٣٣م بحوالي ٣٠٠٠٠٠ جنيه استرليني، وفي سنة ١٨٦٦م بحوالي ٤٠٠٠٠٠ جنيه استرليني، ثم قفزت سنة ١٩٠٦م الى ١٤٣٤٣٩٩ جنيها استرلينيا وفي سنة ١٩١٨م ــ ١٩١٩م بلغ دخل البحرين وحدها من صادرات اللؤلؤ حوالي ١٣٣٣ ٧٠١ جنيها استرلينيا.

وفي سنة ١٩١٢م، وصل عدد المشتغلين في الصناعة وما يتصل بها، في الكويت في أوج ازدهارها، نحو ثمانين الفا، يشمل الغواصين، والبحارة، والطواويش، وصناع السفن، وبلغ أسطول الغوص في تلك السنة ٨٥٠ مركبا. أما في المناطق التي حباها الله بوفر نسبي من المياه والتربة الزراعية، كالبحرين والاحساء والقطيف وعمان فقد كانت صناعة استخراج اللؤلؤ فيها تنافس اقتصاديات الزراعة، وفي احيان عدة كانت تبزها وتتفوق عليها بالايرادات والأيدي العاملة. فقد كان اقتصاد البحرين يعتمد فيما مضى على تجارة اللؤلؤ، وملأت شهرة مغاصاتها الآفاق، والى وقت قريب نسبيا، كان يشتغل بهذا القطاع الاقتصادي الحيوي نحو ٥٠ في المائة من الأيدي العاملة، وكان يمثل ٩٠ في المائة من مجمل صادرات البحرين قبل اكتشاف النفط.



ترجع شهرة لآلىء الخليج الى عصور الحضارات القديمة. وقد شغلت عملية البحث عن اللؤلؤ والاتجار به جميع أوجه الحياة الاقتصادية والمعيشية في الخليج.

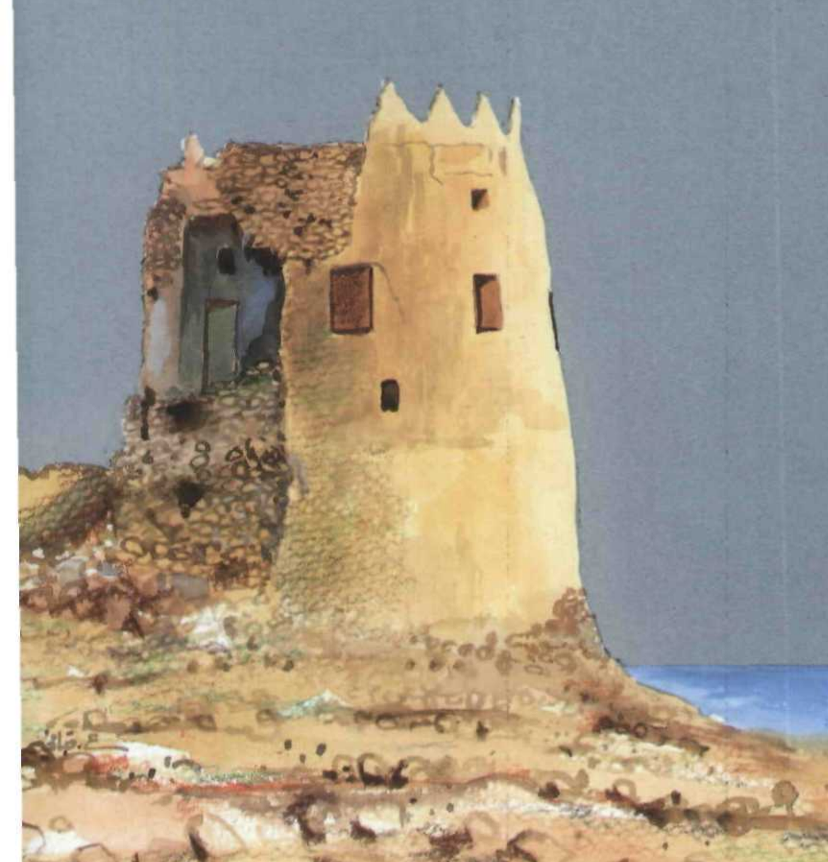


الحاج علي بن صالح بن هندي، يتذكر تاريخ الغوص بالبحرين بصفته كان معاصرا للعصر الذهبي لتجارة اللؤلؤ بالخليج قبل ظهور النفط.

أما في مناطق المملكة العربية السعودية المطلة على الخليج كالقطيف ودارين وتاروت وسيهات والجبيل والعقير فكان نشاط الغوص هو أهم ثاني مورد للنشاطات الاقتصادية بعد الزراعة، وكان يستوعب كثيرا من الأيدي العاملة. وكانت تدر أرباحا طائلة، قدرت بأكثر من خمسة ملايين روبية هندية سنويا. وكان الغوص بمثابة النشاط المنافس للزراعة، حيث كان في المواسم المزدهرة يغري الفلاحين بترك العمل في الحقول والبساتين والالتحاق بالبحر، سعيا وراء الكسب الأفضل.

وقد ارتبطت المعاملات المالية بهذه الصناعة ارتباطا وثيقا، فقبيل الموسم كانت الحركة التجارية تزدهر والأسواق تزدحم بالسلع الواردة من الدول المجاورة، وبالمنتجات الوافدة من داخل الجزيرة العربية. وكان المشتغلون بمهنة صيد اللؤلؤ على اختلاف طبقاتهم يمثلون القوة الشرائية الرئيسية. اذ ينشط البحارة لشراء المؤن اللازمة لتجهيز رحلة الغوص، ولتزويد أهليهم وذويهم بما يحتاجونه من غذاء وملبس.

كما كانت هناك صناعات مساندة، مرتبطة بمهنة الغوص، منها صناعة السفن والمراكب البحرية وصيانتها والمعروفة خليجيا بـ «قلافة السفن». وقد انتشرت هذه الحرفة على جميع شواطىء الخليج، وكانت المراكب تصنع في أول أمرها من أخشاب جوز الهند، وتشد ألواحها بواسطة حبال مصنوعة من ألياف جوز الهند، ثم تدهن بزيت كبد الحوت، وتسد أليافها بالقار. ثم تطور الأمر الى استخدام المسامير، وخشب الساج المستورد من الهند، وبدأت اللمسات الفنية تظهر على أشكال وأحجام السفن والمراكب والتي منها السفن الكبيرة الخاصة بالأسفار البعيدة، والصغيرة التي تناسب مختلف العمليات البحرية. ومن أنواع المراكب التي اشتهرت في منطقة الخليج «البوم»، و «البغلة» و «الهوري»

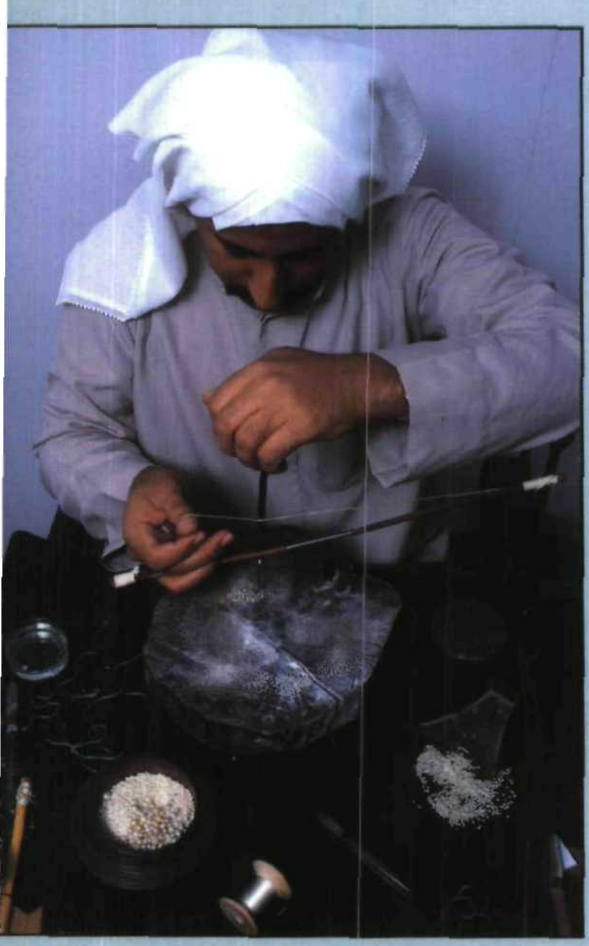


أطلال قلعة محمد بن عبدالوهاب التي تم بناؤها عام ١٣٠٢هـ بدارين، تقف شاهدة على انطواء عصر اللؤلؤ الذي كان مالىء الدنيا وشاغل الناس بالخليج.

و «الداو»، و «السنبوك» و «الشوعي»، و «البلـم»، و «الجالبوت»، وغيرها. وقد اشتهرت عمان والبحرين بصناعة السفن، ولا زالت بعض العائلات الخليجية تحمل لقب «القلاف»، مما يعكس مدى عراقة المهنة وأهميتها في مجتمع الغوص. كما إستمد البحار كثيرا من أدوات مهنة البحر من البيئة التي يعيش فيها، وكانت النخلة خير صديق له في البحر كما هي في البر حيث جعل من ليفها حبالا يستخدمها في الكر والفر في أعماق البحر، وفي أغراض الملاحة والابحار عموما، ومن جريدها صنع أقفاصا يصطاد بها أسماكا، وإتخذ من ثمرها زادا. وقد أكثر الفلاحون من زراعة فسائل «البكيرات». لأنها تطرح ثمارها مبكرا بما يصادف مع بداية موسم الغوص، وهذا ما يفسر انتشار هذا النوع من النخيل في منطقة القطيف مثلا.

مخاطر ومصاعب الغوص

إن ملحمة الغوص التي شهدها مجتمع الخليج، هي فصل واحد من فصول قصة الانسان مع البحر، هذا الكيان الكبير، الذي تكتنفه الأسرار والأساطير. ولقد كانت العلاقة بين الطرفين دائما تحكمها العواطف المتضاربة: ولعل ذلك يعود بجزء منه الى طبيعة البحر المتقلبة السريعة التغير. فالبحر كريم معطاء ومسالم أحيانا، ولكنه سرعان ما يقلب ظهر المجن، ويتحول الى وحش كاسر، يكتسح السفن بما حملت من أموال وأرواح.. ولقد حفل تاريخ الغوص بكثير من قصص الكوارث البحرية الفردية والجماعية، ولعل من أشهرها تلك التي حدثت سنة ١٩٢٥م، والتي عرفت محليا بسنة «الطبعة» حيث أهلك إعصار هائل آلاف البحارة وأغرق سفنهم، ولم يخل بيت واحد من مناحة من جنوب الخليج الى شماله. وهناك العواصف المفاجئة أو رياح البحر العاتية التي ربما تكون سببا في غرق مركب كامل. ويتعرض الغواصون أثناء الغوص الى أخطار حيوانات وضواري البحر، وخاصة «الجرجور» سمك القرش الذي يعتبر من أكبر أعداء الغواصين، ويليه نوع من السمك يعرف «بالديك» ولدغته سامة، وكذلك «اللخمة»، وهي نوع من السمك العريض تضرب بذيلها الطويل السام، وهناك «الدول» وهو حيوان هلامي يحدث في الجسم ندوبا، وغيرها من الأسماك السامة الأخرى مثل «دجاجة البحر». ولم تكن الظروف الاجتماعية والتنظيمية التي يعمل فيها البحارة الاجراء بأقل قسوة من الظروف الطبيعية التي يعملون فيها، فقد كان عليهم أن يجابهوا قسوة البحر، وقسوة «أعراف المهنة» التي وضعت أساسا لتضمن السيادة المطلقة «لمالك السفينة» أو الممول على حساب حقوق البحارة الاساسية التي كثيرا ما كانت تبخسهم أثمان اللؤلؤ، وبالكاد يعطون ما يغطي قيمة السلفة «التسقام» التي تسلموها في بداية موسم الغوص، لاعاشة أسرهم. وقد جرى العرف بانتقال الدَيْن الى الابن، عند وفاة



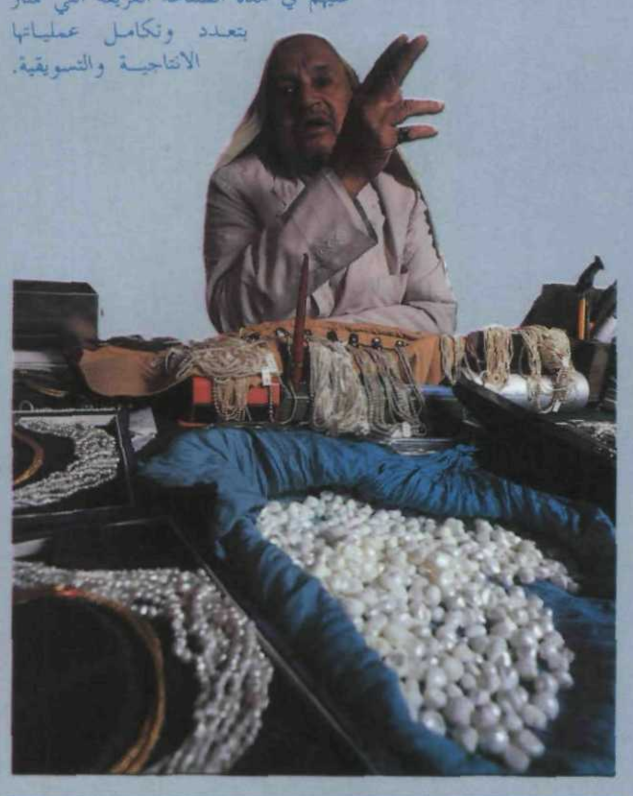
السيد محمد عبدالله ابو هندي، يقوم بعمله الدقيق بتثقيب اللآلىء لتنتظم بعد ذلك في عقد جميل.

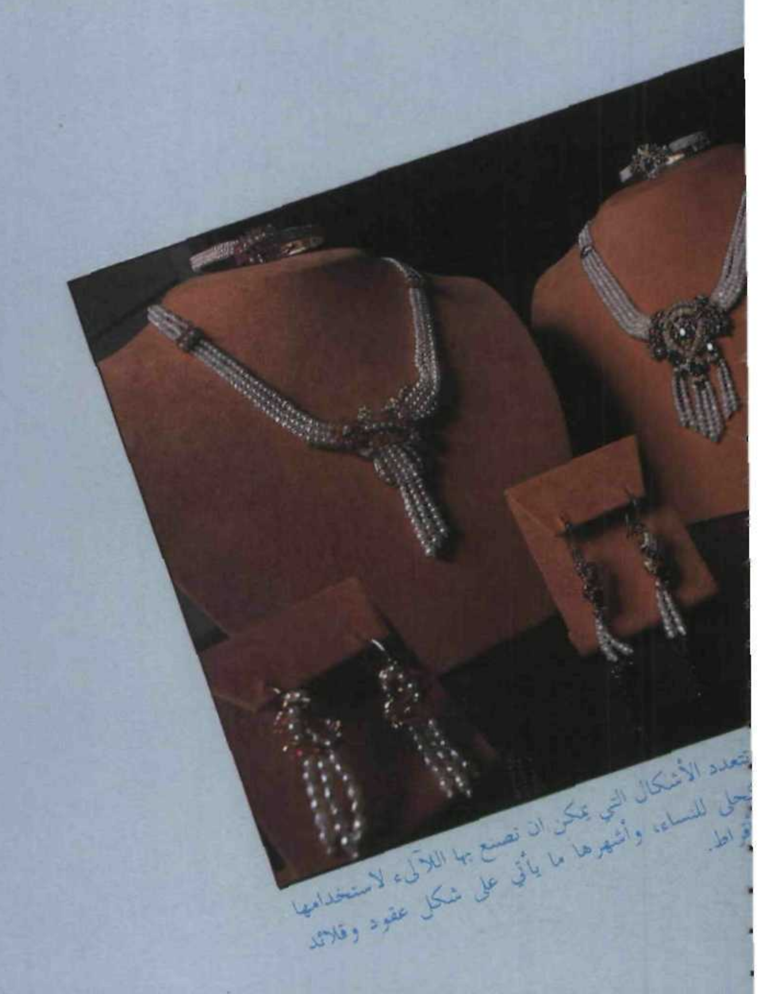
الأب، وهذا يعد نوعا من أنواع عمل السخرة. واجمالا كانت الأحوال المعيشية والمداخيل لهؤلاء البحارة لا تتناسب مطلقا مع الثروة التي يجنيها كبار النواخذة والطواويش. ولقد عبر عن ضنك وبؤس هؤلاء البحارة وحالتهم المزرية، الشاعر بدر شاكر السياب في قصيدته المشهورة «غريب على الخليج» حيث قال:

الريح تلهث بالهجيرة، كالجثام، على الأصيل
وعلى القلـوع تظل تطوي أو تنشر للرحيـل
زحـم الخليج بهـن مكتدحـون جوابو بحار
من كل حـاف نصف عـاري
وعلى الرمال، على الخليج
جلس الغريب، يسرّح البصر المحيّر في الخليج،

ونظرا لأهمية البحارة.. في صناعة الغوص، قامت السلطات بالبحرين سنة ١٩٢٣م بتنظيم بعض أمور الغوص، وأوجدت بعض القوانين التي تضمن حقوق البحارة الاساسية، ومنها حقهم في معرفة أثمان بيع محصول اللؤلؤ وإنعدام دين البحار في حالة وفاته. وغيرها من الأمور التنظيمية.

السيد عبدرب الرسول محمد، احد كبار تجار اللؤلؤ بالبحرين. والذين كان يعتمد عليهم في هذه الصناعة العريقة التي تمتاز بتعدد وتكامل عملياتها الانتاجية والتسويقية.





تتعدد الأشكال التي يمكن ان تصنع بها اللآلىء لاستخدامها كحلى للنساء، وأشهرها ما يأتي على شكل عقود وقلائد وأقراط.

الفنون البحرية والغوص

«لم تكن مهنة الغوص لدى انسان الخليج، بحثا عن اللؤلؤ إلا استجابة طبيعية للظروف البيئية، التي حباها الله بها. فهذه الثروة الطبيعية المتجددة، التي لا يضن بها البحر على من يجرؤ على اقتحام ظلماته ومقارعة أهواله، وتلك هي هبة من الله تعالى لانسان الخليج، لكي يعوض بها بعضا من جفاف الأرض وقسوة الصحراء المحيطة به.

ولقد أضفت هذه المهنة على حياة المجتمع وثقافته صبغة خاصة وأصبحت جزءا من تراثه، وصار البحر جزءا من وجدان الناس، فارتبطت أفراحهم وأتراحهم به، وآمالهم وآلامهم بما تجود به مياهه من خير أو شر. وحتى تقسيم الزمن كان مرتبطا بموسم الغوص، فالسنة فصلان.. فصل العمل والابحار، وفصل تصريف المحصول والاتجار فيه. وقد إنعكس ذلك على العادات واللهجات والتكوين النفسي والثقافي لمجتمع الخليج بشكل عام. وأصبح البحر أحد مكونات الموروث الفكري والثقافي للسكان. ولعل ذلك يتجلى في الفنون الشعبية المختلفة والفنون البحرية التي إنعكست على حياة الانسان على ضفاف الخليج.

ومن أهم أنواع «الأدب البحري» في الخليج «الشعر الزهيري» أو الموال وهو شكل من أشكال الشعر الشعبي الذي يرجع بجذوره الى شعر الرجز.

ولقد غطت مادة الشعر الزهيري، ما يتصل بالبحارة من



يتعرض الغواصون الى أخطار وضواري البحر مثل «سمك القرش، واللخمة»، وغيرها من الكائنات البحرية .

عاطفة ورابطة اجتماعية، وما يحيق بمهنة الغوص من مصاعب ومتاعب. ولقد ازدهر الشعر الزهيري في فترة الغوص، حتى أن الجيد منه كان واسع الانتشار على الساحل، ومن ذلك قول الشاعر:

ودعتكـــم بالسلامة يا ضـــوى عيني
وخلافكم ما غمض جفني على عيني
واعدتني بالوعد لمن جفت عيني

ظليت يا سيدي جسم بلايا روح
قد فر مني العقل وظل الجسم مطروح
كل العرب هودت وأنا شقي الروح
يا نور عيني مثل ما راعيك راعيني

وهناك أغاني «البريخة» المرافقة لأعمال سحب الحبل المثبت للسفينة، وتتم هذه النهمة على ثلاثة أشكال، وتتضمن غالبا الأدعية، التي تصاحبها تصفيقات البحارة التي تشبه حركة الأمواج وتلاطمها بالسفينة، أو تكسرها على الساحل.

أما أهازيج «النهمة» التي تميز بها بحارة الخليج، فتقال في مناسبات عديدة وعند الابحار، وتعرف باسم «نهمة الشراع» وكذلك عند خروج الغواصين من قاع البحر وبأيديهم المحار وتعرف باسم «نهمة المحار» ومما يغنى في ذلك:

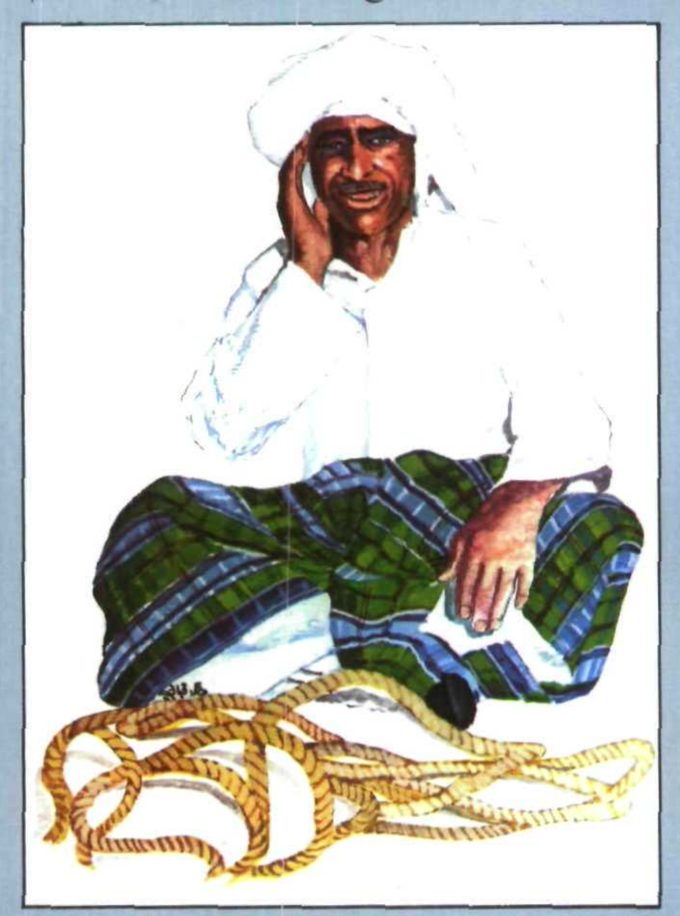
سرنـــا واتكلنـــا على اللـــه
ربـــي عليـــك اتكالـــــي
يا منجي يوسف من البير
ربـــي عليـــك اتكالـــــي
يا رازق الدود من الصخر
ربـــي عليـــك اتكالـــــي

ومما لا شك فيه أن هناك نوعا من التفاعل والانصهار بين فنون البر والبحر بسبب تفاعل وتداخل البيئتين البحرية والصحراوية وذلك عبر فترة زمنية طويلة، نتج عنها أشكال فنية جديدة، تجسدت في الأغاني والرقص «كالصوت» وفن السامري الذي يتمحور حول الغزل والعتاب، ويؤدى جلوسا، وفن «الفجري»، وهو أحد الفنون البحرية الجماعية ويؤدى على أشكال رقصات عدة.

ويحتل النهام مكانة خاصة في عملية الغوص، بل يشكل جزءا لا يتجزأ من عناصر العملية الانتاجية، وعاملا هاما في نجاح هذه الصناعة. وهذا يفسر لنا المكانة العالية التي تبوأها «النهام».. الذي كان حادي البحارة في وسط البحر، بحيث لا تكون الرحلة ناجحة إن خلت من النهام. وكان كبار النواخذة يتسابقون للفوز بالنهام المشهور، لما له من أثر فعال على نفسية بحارتهم وبالتالي على انتاجيتهم، وكانوا يدفعون له نصيبا جيدا من ثمن اللؤلؤ. والنهام لم يكن مطربا أو شاعرا شعبيا للترويح عن معاناة البحارة إزاء الصعوبات التي كانت تواجههم في البحر وتقلباته، ومخاطره فحسب، بل كان شاعر الجماعة، ومواسيها والباعث في حناياها الأمل والصبر والرجاء، حيث يمس بمواويله مواطن الذكرى والحنين العاطفي للأهل والأحباب فيعيدها حية، ويمسح بكلماته آلام الفراق ولوعة الحرمان، فيمنحها دفقة من الأمل. ويرافق بمواويله وتيرة العمل، فينوع زهيرياته ونبرات صوته، بما يتناسب مع ظروف العمل ومراحله. وبذلك يساهم في تخفيف مكابدة هؤلاء الرجال المكافحين، تحت الشموس اللاهبة، والأمواج الهائجة. فتأتي كلماته بالبلسم والمسكن لهموم النفوس وتعب الأجسام التي أعياها كثرة الترحال وطول السفر. ويحفظ الوجدان الشعبي الى الآن أسماء مشاهير النهامين، الذين لا زالت صدى مواويلهم تتردد حتى وقتنا الحاضر، حاملة لنا صورا «ميلو درامية» من ملحمة الغوص التي عاشها الأجداد.

وقد كان البحارة يرددون كلمة «يا مال» أو «يا مال اوه» أو «اوه هوه» بصوت قوي، يتناغم مع ايقاعات النهام الذي تعلو وتنخفض نبرات صوته تماما كخرير أمواج الخليج. وقد يستخدمون آلات ايقاعية كالطارة والطبلة الكبيرة.

وخلاصة القول أن النهام كان له مكانة وثيرة عند أهل الغوص ولجج البحر وامواجه المتلاطمة أيام



يحتل النهام مكانة خاصة في رحلة الغوص

الوقت نفسه خلايا حية من الطبقات الخارجية لمحار آخر، حيث تقوم هذه الخلايا بحث المحارة لافراز عرق اللؤلؤ الذي يتجمع على هيئة طبقات حول الكرية المزروعة، ويكون الناتج لؤلؤة. لا يمكن تمييزها عن اللؤلؤة الطبيعية إلا بوسائل متقدمة مثل أشعة اكس. كما تظافرت العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية عالميا ومحليا، في غروب تجارة اللؤلؤ وأفول نجمها. ومن ذلك.. إنهيار نظام المهراجات في القارة الهندية بعد الاستقلال، بما يمثله من قوة شرائية مهمة، جعلت السوق الهندية قناة رئيسية من القنوات التصريفية لهذه السلعة، حيث غدت «بومباي» مركزا دوليا لتجارة وصناعة اللؤلؤ، وما يصاحبها من خدمات فنية وتجارية مساندة (كصياغة الحلي، والجواهر، واللآلىء، وصناعة المكاييل والمقاييس، وأعمال التصنيف والترويج). كما ساهم تغير المفاهيم والمثل الاجتماعية التي كانت سائدة في المجتمعات الاوروبية الارستقراطية، بعد الحربين العالميتين الأولى والثانية، في تبديل الأذواق الاستهلاكية، لدى الفئات الاجتماعية العليا، مما قلل الطلب على اللآلىء الطبيعية.

وقد جاء إكتشاف النفط في منطقة الخليج، ليضع الفصل الأخير في رواية هذه الصناعة، إذ ما أن حطت شركات النفط الأجنبية رحالها على شواطىء الخليج الحالمة، وبدأت عمليات التنقيب عن النفط، حتى تدافع اليها الكثير من البحارة والعاملين بمهن البحر المختلفة للعمل لديها، إذ وجدوا فيها عملا مضمونا وأكثر استقرارا وأجزل عطاء، وأكثر سلامة. وقد إبتدأ ذلك في البحرين عام ١٩٣٢م، حيث اكتشف البترول هناك. ثم تكرر المشهد نفسه في الساحل الشرقي من المملكة العربية السعودية، حين اكتشف البترول عام ١٩٣٦م، ثم في باقي دول الخليج، كالكويت، والامارات وقطر، وأخيرا عمان. وبذلك سلبت هذه الصناعة من أهم مقومات وجودها وهم «البحارة» فانتكست معالمها ورموزها، إذ ظهر مارد اقتصادي جديد، هو شريان حضارة القرن العشرين، «البترول» الذي وجد فيه الخليجيون الثروة البديلة، التي نقلت المنطقة الى آفاق مرحلة نوعية جديدة.

وقد أدت كل هذه العوامل مجتمعة، وبالتدريج، الى كساد تجارة اللؤلؤ، وكان لذلك آثاره الاقتصادية السلبية على الطواويش وتجار اللؤلؤ خاصة الذين كانوا يستثمرون جل رؤوس أموالهم في هذه الصناعة، مما دفع الكثيرين منهم الى بيع بيوتاتهم لدفع الخسائر التي لحقت بهم. وأصبح تجار اللؤلؤ الذين كانوا يرفلون في بحبوحة العيش، والذين كان تضرب في غناهم الأمثال، لا يملكون شروى نقير. ومع تقدم صناعة الزيت بالمنطقة، وتثبيت أقدامها، أدرك الجميع ان «حقبة النفط»، هي الثروة البديلة التي تلوح في الأفق، فشمر الجميع لقطف ثمار هذه الثروة، وأصبح الغوص مجرد ذكرى من ذكريات الماضي التليد لهذه السواحل الحالمة □



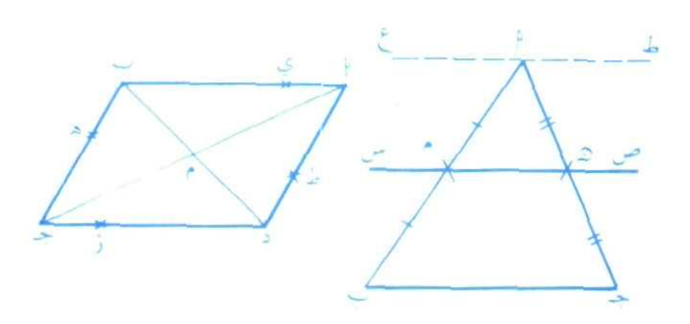
تتسابق المحلات التجارية العريقة في تجارة المجوهرات في عرض آخر المبتكرات في مجال اللؤلؤ الذي يسحر بريقه الألباب.

كانت أشبه ما تكون بالعصر الذهبي، لتجارة اللؤلؤ وآثارها الاقتصادية بالنسبة لسكان شواطىء الخليج العربي الحالمة.

اللؤلؤ الاصطناعي.. وغروب تجارة اللؤلؤ في الخليج

كان اللؤلؤ مالىء الدنيا وشاغل الناس في الخليج. فهو الحلم الذي يدغدغ أذهان الجميع آناء الليل وأطراف النهار، فهو لم يكن موردا اقتصاديا لا ينضب معينه، بل كان أيضا نمطا من أنماط العيش، وأسلوبا من أساليب الحياة. ولم يكن يدر بخلد أحد، أن يأتي يوم تبور فيه أسواق هذه السلعة. وتنتكس اقتصاديات هذه الصناعة العريقة التي تعود الى ما قبل التاريخ. فلقد شاء القدر أن يتمكن اليابانيون من زراعة اللؤلؤ في البحار، وطرحه تجاريا في الأسواق، كسلعة منافسة وبديلة، للؤلؤ الطبيعي، مما أدى الى تدهور أسواق لؤلؤ الخليج محليا. وعالميا وكساد تجارته.

وقد كانت زراعة اللؤلؤ معروفة في الحضارات القديمة، فقد كان الصينيون في الأزمنة الغابرة، يصنعون صورا وتماثيل صغيرة من القصدير أو الرصاص ويضعونها داخل غلاف المحار الحي الموجود في الماء، وبعد مدة تصبح مغلفة بعرق من اللؤلؤ. ومن هنا إنبثقت فكرة «اللؤلؤ الاصطناعي» حيث إستطاع اليابانيون عام ١٨٩٠م، تطوير طريقة منظمة لزراعة اللؤلؤ بالتأثير الصناعي على المحار. ولكن لم يتسن تصنيع لؤلؤ مستدير بهذه الطريقة، وجعله عمليا من الناحية الاقتصادية والتجارية إلا عام ١٩١٣م. وتتلخص الطريقة في عمل كرية صغيرة من عرق اللؤلؤ، ثم غرسها بجراحة دقيقة في أعماق محارة حية، لها من العمر ثلاث سنوات. ثم وضعها في قفص وتركها في بقعة هادئة من البحر، وتوضع مع الكرية في



الرياضيات الحديثة

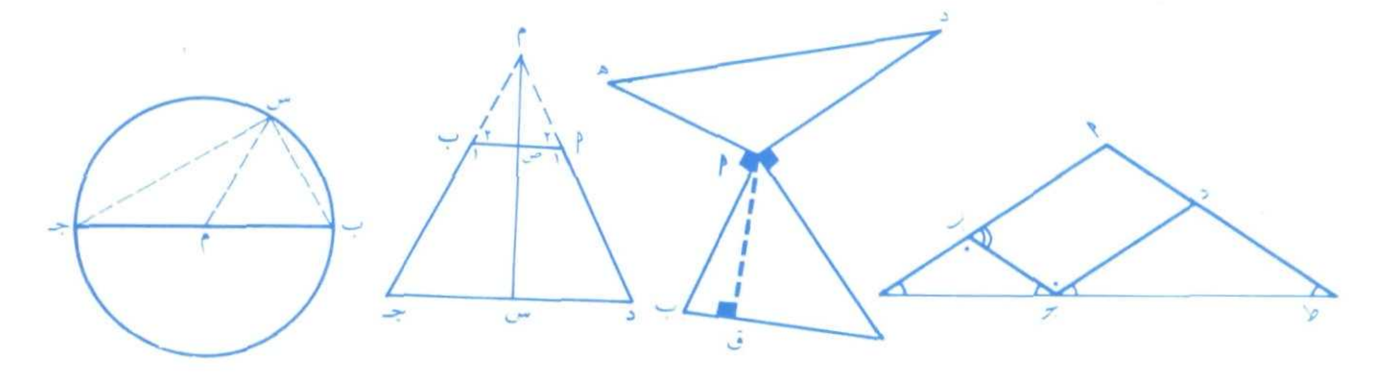
بقلم: د. محمد علوي البار/ جامعة الملك فهد للبترول والمعادن/ الظهران

لقد سعت كثير من دول العالم الى ادخال الرياضيات الحديثة في مناهج المدارس الاعدادية والثانوية واستعانت بعض هذه الدول باليونسكو في ذلك. فقد أدخلت الولايات المتحدة الامريكية الرياضيات الحديثة في مناهج المدارس الثانوية في عام ١٩٥٧ ثم أدخل مفهوم المجموعات ــ وهو من أهم سمات الرياضيات الحديثة ــ في المناهج عام ١٩٦٣م واتخذت اساسا للرياضيات. وقد كان منهج الرياضيات في الثانويات في المملكة العربية السعودية يشمل الرياضيات التقليدية في الحساب والجبر والهندسة الاقليدية حتى جاء عام ١٩٧٣م أي عندما تبنت المملكة منهج اليونسكو في الرياضيات الحديثة وادخل هذا المنهج في بعض الثانويات ثم اكتمل ادخاله في المدارس الاعدادية والثانوية عام ١٩٨٠م.

لقد اعتبرت الرياضيات الحديثة ثورة في عالم الرياضيات وازعجت كثيرا من الآباء والأمهات بحشودها الهائلة من الرموز والمصطلحات وأصبح من غير الممكن على كثير منهم مساعدة ابنائهم في حل الواجبات المدرسية. كما يحتاج من يرغب في مساعدة ابنائه الى دراسة مواد تبدو مزعجة وغريبة وليست ذات فائدة واضحة.

وان الشكوى من الرياضيات الحديثة تظهر في جميع دول العالم التي ادخلتها في مناهج المدارس. بل كثر الحديث عن ضعف كثير من الطلاب في الرياضيات في حين يتفوقون في العلوم الأخرى. وقد ذكر هذا الضعف الرئيس الامريكي في خطاب له منذ سنين قليلة كما أشار في خطابه الذي قرئ في المؤتمر العالمي للرياضيات الى تناقص إقبال الطلاب على التخصص في الرياضيات. وتتلخص الشكوى من الرياضيات الحديثة في أن الطالب يعرف مفهوم المجموعات مثلا في حين يخطئ في جمع كسرين بسيطين. كما أصبح الطالب يفهم بعض المسلمات والمصطلحات بينما يفتقد المهارة الحسابية.

إن محتوى الرياضيات لم يتغير ولكن اسلوبها وتركيزها على بعض الجوانب ــ التي سنتطرق لها ــ هو الذي تغير. ان بعض كتب الرياضيات الحديثة تشرح الفكرة ولا تبين من أين أتت ولا ماذا يمكن العمل بها بل على القارئ أن



يثق أنها فكرة رياضية مهمة بالرغم من أنه لا يرى في حياته مدى أهميتها. ان الرياضي لا يقبل الافكار بالثقة بل يطلب اثباتا لها ومن المؤسف ان نطلب من الناس ترك تفكيرهم النقدي وقبول المتغيرات في الرياضيات دون دليل أو تعليل.

إن المطّلع على كتب الرياضيات الحديثة قد يعتقد أن الكتب ألقت الرياضيات التقليدية جانبا وأحلت محلها الرياضيات الحديثة والحقيقة أن هذا غير صحيح لأن معظم الرياضيات التي تدرس في المدارس توجد منذ أكثر من قرن من الزمان. فمثلا مفهوم المجموعات طور وعرض في القرن التاسع عشر ويمكن الحصول على محتوى الرياضيات الحديثة في كتب يزيد عمرها على ١٠٠ سنة. وان ما حصل هو تطور الرياضيات واندماج الرياضيات التقليدية فيها تدريجيا ثم ادخلت الى المدارس دفعة واحدة دون الاشارة الى علاقاتها بالرياضيات التقليدية. ان الرياضيات كالفلسفة لا يمكن فصلها عن التاريخ.

والرياضيات الحديثة لا تأخذ الأفكار بمعزل عن غيرها من الرياضيات وبمعزل عن المشاكل التي يمكن ان تحلها أو لماذا هي مهمة. فمثلا تعتبر فكرة رياضية من أفكار القرن العشرين مهمة اذا ألقت الضوء على مواد القرن التاسع عشر ولا يمكن عرضها بدون رياضيات القرن السابق.

ان الرياضيات تتسم بالكبر والاستقرار الى حد كبير. وجوهر الرياضيات ــ الى حد ما ــ بقي على ما هو عليه فيما يتعلق بالمسائل التي ظهرت من مشاكل حقيقية في العالم الطبيعي وأخرى ذات صلة بالاعداد والحاسبات الاساسية وحل المعادلات.

إن الاعتراض على الرياضيات الحديثة سببه أنها تقدم دون تهيئة الطالب. اذ لا بد من عرض الرياضيات الحديثة بطريقة تتيح للطالب والعالم الربط بينها وبين قضايا الحياة اليومية.

لقد أدخلت الرياضيات الحديثة الى المدارس الاعدادية والثانوية بعد دراسة طويلة للمناهج وكانت الحاجة لادخالها بسبب المتغيرات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية في المجتمعات وهي تغييرات ضرورية للتقدم التقني والعلمي هذه الأيام. ان هذا العصر يحتاج الى قدر كبير من الدقة والسرعة والتخمين الدقيق، مما يجعل الطريقة الرياضية في التعليل ضرورية للصناعة والأعمال والعلوم. لقد كانت الرياضيات التقليدية التي تدرس في المدارس معروفة منذ عهد نيوتن وان التقدم التقني يحتاج الى حقول الرياضيات الحديثة.

إن أهم مميزات الرياضيات الحديثة ما يلي:

١ ــ التركيز على التفكير والفهم وليس على الحفظ.
٢ ــ التجريد والتعميم.
٣ ــ لغة المجموعات.
٤ ــ الرموز والمصطلحات.
٥ ــ التوسع الهائل.
٦ ــ الدقة المنطقية والأسلوب الافتراضي.

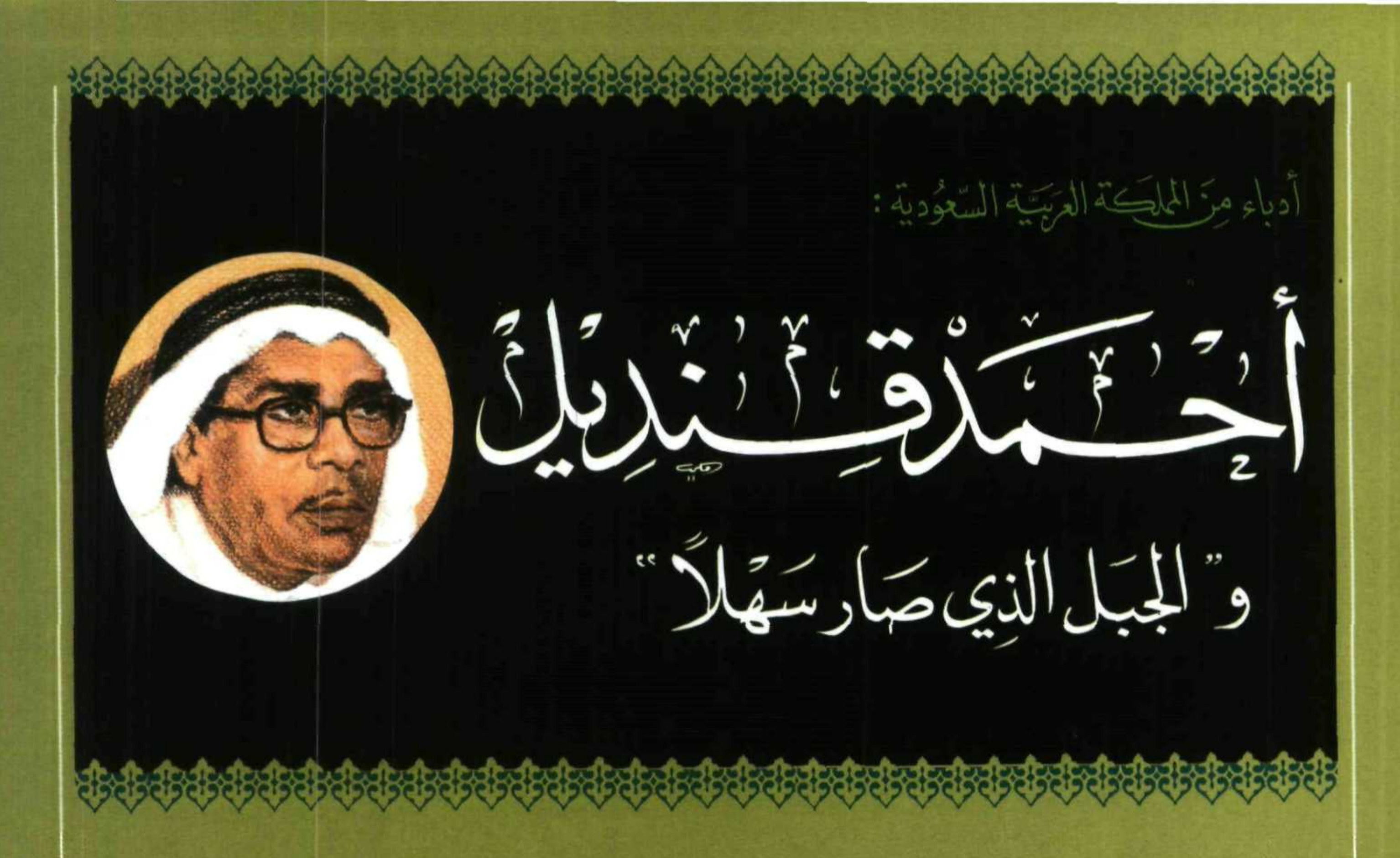
ولمساعدة الطالب في فهم الرياضيات الحديثة ننصح بما يلي:

١ ــ ان كان هناك مفتاح سري لفهم الرياضيات الحديثة فهو نبذ الخوف من عدم الفهم والقلق عند دراستها. ان الرياضيات مادة شيقة ومسلية ولا بد من تنمية حب المغامرة في نفس الطالب لاكتشاف اسرار الرياضيات وتركيبها وقوتها. ويتم ذلك بعرض العديد من الأمثلة ثم استنباط الفكرة المجردة والتعميم منها.

٢ ــ الاكثار من حل المسائل المتنوعة لأن ذلك يكسب الطالب مهارات حسابية ويساعده على فهم الأفكار.

٣ ــ كثيرا ما يكون ضعف الطالب في الرياضيات في المرحلة الثانوية أو الجامعية ناجما عن ضعف خلفيته في رياضيات المرحلة المتوسطة. فلذلك ينصح الطالب بمراجعة ما نسيه من مهارات مثل جمع وتبسيط الكسور وتحليل المقادير الجبرية وحل المعادلات ورسم الدوال.

٤ ــ إن الرياضيات مثل اللغات الاجنبية تنمو معرفتها ومهارتها خطوة خطوة مع الوقت وهذا يقتضي ان يكون الطالب دائم الصلة بها فيقرأ المادة قبل حضوره الحصة الدراسية ويحل الواجبات بعدها ولا يتأخر عن حضور حصة دراسية أو حل واجب مدرسي □



بقلم: د. مصطفى ابراهيم حسين/الرياض

ولد احمد صالح قنديل بجدة عام ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م. وتلقى تعليمه بمدارس الفلاح، التي عين مدرسا بها، عقب تخرجه، وذلك جريا على التقليد الذي اتبعته الفلاح آنذاك. وقد درس على الرائد الكبير: محمد حسن عواد. وكان من زملاء قنديل في الدراسة نفر من جيل الرواد، منهم: حمزة شحاتة، ومحمود عارف، ومحمد علي مغربي. وعايش — مع أقرانه — نبض الحياة، الذي اطلقته الفلاح في صفوف طلابها، وفي الساحة الأدبية والثقافية بشكل عام.

وقد طالت مدة عمل قنديل بالتدريس في الفلاح — والكلام هنا لصاحب «اعلام الحجاز في القرن الرابع عشر الهجري» (الى أن انتقل الى مكة المكرمة رئيسا لتحرير جريدة «صوت الحجاز» في عام ١٣٥٥ للهجرة، بترشيح من صديقه الأديب الشاعر الراحل حمزة شحاتة، لدى الراحل الشيخ محمد سرور الصبان، رئيس الشركة العربية للطبع والنشر آنذاك).

وقد ظل عمل قنديل في رئاسة تحرير «صوت الحجاز» من الرابع من شعبان لعام ١٣٥٥ للهجرة، الى الثاني عشر من جمادى الأولى لعام ١٣٥٦ للهجرة. ثم شغل — بعد ذلك — وظائف أخرى، منها عمله بالتحرير في وزارة المالية، مع الأدباء: عبدالوهاب آشي، ومحمد حسن فقي، ومحمد حسن كتبي، الذين كان لهم أكبر الأثر في النهوض بأسلوب التحرير الرسمي والاداري.

أما آخر ما تولاه من الوظائف، فهي وظيفة «مدير الحج العام»، بعد كل من الاديبين: الشيخ محمد سرور الصبان، ومحمد صالح القزاز. وبعد احالته الى التقاعد، مارس بعض الأعمال الحرة في كلّ من القاهرة وبيروت، الى جانب نشاطه الأدبي والفني: أديبا وكاتب حلقات إذاعية وتلفزيونية.

ومنذ التقى قنديل بحمزة شحاتة، انعقدت أواصر المودة بين الأديبين الكبيرين، وكانت صداقة ذات أثر على كل منهما، وعلى الحياة الأدبية بشكل عام. وندع للأستاذ محمد علي مغربي أمر الحديث عن هذه الصداقة. يقول في «اعلام الحجاز في القرن الرابع عشر الهجري»:

«.. وطلب مني الأستاذ حمزة أن أجمعه بالقنديل، بل وأعرفه عليه. وكان شحاته — يومها — أديبا جهيرا وشخصية مرموقة، فاتصلت بالقنديل — يرحمه الله — وأعربت له عن إعجاب الأستاذ حمزة بما ينشده من شعر، وضربت له موعدا للاجتماع بالأستاذ حمزة في مربعة الجمجوم — وهو مبنى كان يومها خارج مدينة جدة بالعمارية قريبا من مقبرة حواء — ... وقد استمرت صلة القنديل بالأستاذ

شحاتة باستثناء فترة ليست بالطويلة، حدث بينهما من الجفوة ما أوقف هذه الصلة. ولكن هذا التوقف لم يستمر، فعادت صلتهما الى ما كانت عليه من قبل، يرحمهما الله».

وقد شارك قنديل في تأسيس «نادي الشبان» في جدة مع أقرانه: حمزة شحاتة، ومحمود عارف، ومحمد عبدالله رضا، ومحمد حسن عواد، وصالح إسلام، وعمر نصيف، وعبدالعزيز جميل، ومحمد علي مغربي، ويونس سلامة، وعبدالوهاب نشار، ويوسف عوض. ويبدو أن «نادي الشبان» ــ الذي أسسه قنديل وشحاته وأقرانهما ــ كان تجربة رائدة سبقت بسنوات طوال تجربة ظهور الأندية الأدبية بشكل رسمي.

ثقافة قنديل

ليست بين أيدينا مصادر تعرفنا ــ بشكل محدد ومباشر ــ بثقافة الأديب أحمد قنديل، اللهم إلا ذلك النُّثار المفرق في بعض مؤلفاته، ومؤلفات سواه، التي تناولتها بالحديث موجزا أو مسهبا، هذا الى ما يعرفه الدارسون عن ثقافة جيل قنديل من أدباء الريادة والطليعة. ولنبدأ من هذه النقطة الأخيرة. فقد نهل قنديل ــ مع أبناء جيله الرواد ــ من الثقافتين المصرية والمهجرية، وعاصر هذا الجيل رجال الحركة الأدبية على الساحة العربية: طه حسين والعقاد والرافعي والمازني والبشري وسلامة موسى وشوقي وحافظ ومطران وأحمد نسيم، وشعراء ابولو، وأدباء المهجر: نعيمة، وأبا ماضي، وجبران، وعُريضة وغيرهم. ويبدو أن هذا الجيل قد نظر الى الاتجاهات الأدبية، التي أحدثها طه حسين والعقاد والرافعي وسلامة موسى، على أنها مذاهب أدبية، تمثلت في «الطحسنية والعقادية والرافعية». وقد قرر القنديل هذا المعنى وكرره في «الجبل الذي صار سهلا» وأشار إلى إعجاب شحاتة بسلامة موسى، وانتساب الزيدان الى الرافعي. والى ان احمد السباعي، يرحمه الله، كان «من أوائل المتمهجرين» بينا كان محمد سعيد عبدالمقصود، يرحمه الله، «قائد القافلة» ولعله يقصد قافلة المهجريين.

ولم يفصح القنديل عن أكثر الأدباء تأثيرا في ثقافته، أو نيلا لاعجابه، لكن المؤكد أنه لم يخرج عن الدائرة التي كانت ذات تأثير في حركة الأدب السعودي بشكل عام: نعني بها دائرة أدب مصر والمهجر، مع ما كان يقترن بها من كتب التراث العربي القديم.

وقد أفصح القنديل عن بعض المناهل الثقافية الأخرى ومنها: صحف مصر، كالأهرام والمقطم والسياسة الأسبوعية، وسواها من المجلات. ولعل المجلات الفكاهية، التي كانت ترد من مصر قد لعبت دورا كبيرا في تغذية الحاسة الفكاهية لدى القنديل، وتعريفه بالشعر «الحلمنتيشي»، الذي كان يصوغه الشاعر المصري الفكه «حسين شفيق المصري»، رئيس تحرير مجلة «الفكاهة» الاسبوعية، التي كانت تصدر عن (دار الهلال) بالقاهرة.

كما يحدد احمد قنديل بعض المناهل الثقافية ذات الأثر في أدبه، ومنها «السيرة الشعبية»، التي كانت تتسق مع الحس الشعبي البلدي، الذي نزل من نفسه منزلة الطبع الراسخ. لقد تلقى ــ يرحمه الله ــ السيرة الشعبية مسموعة ومقروءة: تلقاها مسموعة من الراوي في مقاهي جدة، ومن بينها المقهى الشعبي، الذي كان منزلهم يطل عليه في «محلة اليمن» بسوق العلوي في جدة، حيث أتيح له ــ وهو صبي صغير ــ أن يتابع الراوي من نوافذ بيتهم الشعبي، ويتابع الجمهور الغفير الذي يصغي في إطراق ومتعة الى الراوي، يقص سير الزير سالم، وأبي زيد الهلالي، والظاهر بيبرس، وعنترة بن شداد «وهو أحبهم للنفوس».

كما تلقّى السيرة الشعبية مقروءة، حين كان في بيتهم القديم، يستأجر اجزاءها من العم «الموصلي» بالحراج ثم من العم «محرم» بسوق الجامع، وكلما انتهى من قراءة جزء أعاده لاستئجار الجزء الذي يليه. كان ــ في بيتهم الشعبي القديم ــ يعد المجالس الوثيرة بنفسه.

وقد كان لروايات الجيب مكانتها، ضمن مقروءات قنديل، وهي روايات كان يقوم بتعريبها عمر عبدالعزيز أمين «ومعظمها حافل.. بل ومختص بحوادث الثورة الفرنسية». يقول قنديل عن «روايات الجيب» تلك: «وهي روايات كنا نتبادلها بالزنابيل مع أصدقاء القراءة، للمبادلة والمشاركة باعتبارها مالئات فراغنا الرهيب ومطالب دمائنا الفائرة آنذاك». ولعل رخص أثمانها أولا وتوفير بعض الأثمان، وبطريق الاعارة ثانيا، كان مما زاد من إقبالهم على قراءتها.

يضاف الى ما تقدم شغفه بقراءة قصص المغامرات والمغامرين، وهم يصعدون شوامخ الجبال في بلادهم، مع ما كان يجلبه ذلك من اللذة والشعور بالكبرياء وفي كشف المجهول ومعاناة الصعاب. وكثيرا ما ترد اشارات في «الجبل الذي صار سهلا» الى روايات الجيب ــ خاصة ــ تدل على تأثيرها في أدبه.

أعماله

أصدر قنديل ــ يرحمه الله ــ العديد من دواوين الشعر، منها: «شمعتي تكفي» و «اوراقي الصفـراء»، ومنها:

«اللوحات»، و «نار»، و «القناديل»، و «نقر العصافير» كما أصدر قصة شعرية بعنوان «قاطع الطريق». ولعل «الراعي والمطر» قصة شعرية أيضا. هذا الى انه شارك بقصيدة شعرية في مطلع مجموعة «مكتي قبلتي»، التي ضمت قصائد عن البلد الأمين.

أما شعره الشعبي المسمى بالحلمنتيشي، فقد ضم بعضه ديوان بعنوان «جدة عروس البحر»، كما تفرق بعض اخر من كتابه «الجبل الذي صار سهلا». ومن أعماله النثرية: «كما رأيتها» وهو تسجيل لبعض أيامه في مصر، وروايته «الجبل الذي صار سهلا»، التي نخصها بالدراسة.

في المكانة والخصائص الأدبية

يُسْلِك الباحثون «احمد قنديل» مع ثُلة من قرنائه في الطبقة الثانية من جيل الأدباء الرواد. فيقول ــ مثلا ــ محمد عمر توفيق في مقدمة «الجبل الذي صار سهلا»: «ويأتي أحمد قنديل في مقدمة الطبقة الثانية مع حمزة شحاتة، ومحمد حسين فقي، وحسين سرحان، وغيرهم، كما يأتي في مقدمة الطبقة الأولى: محمد حسن عواد، ومحمد سرور الصبان، وعبدالوهاب آشي، وغيرهم أيضا.

ولا بأس ــ هنا ــ من قبول هذا التقسيم الذي اقترحه الاستاذ محمد عمر توفيق وارتضاه، مع ما قد يثير لدى بعض الباحثين من جدل ومخالفة. على أن تلك الدراسة، وهي تحاول جاهدة أن تستبعد عنصر «المفاضلة» ترى لأحمد قنديل مكانة نابعة من خصائص متفردة، ربما لا يشركه فيها واحد من طبقته، أو من الطبقة السابقة.

وأول هذه الخصائص ان قنديل «أديب» بالمفهوم الاصطلاحي للأدب، أي «الابداع الفني في مجالي الشعر والنثر». وكأنما قرر ــ يرحمه الله. دون أدنى نقص أو تراجع، أن يخلص جهده للأدب الابداعي، بمفهوم الخاص، دون الأدب الثقافي والعقلي، الذي يدخل في إطار الأدب بالمفهوم العام.

لهذا لا نجد لقنديل أعمالا في البحث العلمي شأن كثيرين من أقرانه، كالبحث اللغوي أو الأدبي أو التاريخي والجغرافي والفلكلوري، أو البحث الاسلامي. بل لا نجد له ــ في حدود ما أتيح الاطلاع عليه ــ اهتمامات اصلاحية، بالمفهوم المباشر للاصلاح.

ومع أن قنديلا قد عبر بقلمه عن آراء وأفكار في الأدب والحياة والمجتمع فإنه لم يتبنَّ فكرة الأدب الاصلاحي، وإن ظل نزوعه الوطني وطموحه لنهوض بلده نبضا تزخر به كلماته في صور شتى من التعبير.

كذلك لم يمارس «قنديل» في حدود ما أتيح لهذه الدراسة الاطلاع عليه ــ عملا نقديا أو تأريخا أدبيا، وإن ألمّ بجوانب شتى من هذه وتلك إلمامات فيها حس الفنان وتصوير الأديب.

وحتى رؤاه للحياة والواقع كانت كذلك: رؤى فنان يستشعر الظواهر والموجودات والواقع بوجدانية، لا يطيق الوقوف المتفلسف المتأمل، وإن لم تخل نظراته من إلمام فلسفي عابر، تكشف عن حس الفنان، لا تأمل الفيلسوف.

ولسوف نرى أن أكبر روافد «الاديب الفنان» لدى قنديل، كان يكمن في شعبيته وعفويته وتلقائيته، وهي خصائص لا تطيق المكث الطويل، ولا القيد الثقيل. فلقد رأيناه ــ كما سلف القول ــ يبدىء ويعيد في «الطحسنية والعقادية والرافعية» التي يصفها حينا بالزرقاء وحينا بالرافعية المقنعة، كما يشير الى «السلامية الموسوية». ولكنه يتحاشى أن يسلك نفسه في أي منها، وإن نسب اليها أعلاما من أقرانه، على نحو ما أوضحنا.

أغلب الظن، إذن، أن الرجل، يرحمه الله، كان ذلك الطائر المرح العاشق للحياة، يحلق في كل دوحة، ويهبط فوق كل غصن، لا يستقر إلا ريثما يبرح ويعاود تحليقه.. عَجِلا ابدا.. عاشقا ممعنا في عشقه: للفن والحياة.

وما دمنا ألمحنا الى الشعبية ــ في كيان قنديل النفسي والأدبي ــ فلنقرر هنا أن «الطابع الشعبي» كان أبرز ما يميزه على سائر أبناء جيله، من طبقته أو الطبقة السابقة عليها. هكذا نراه في «الجبل الذي صار سهلا»، ونؤكده عندما نتناول هذا العمل بالدراسة التحليلية، وحده دون غيره من إبداعات القنديل. وهكذا نراه في «الشعر الحلمنتيشي» الذي وقف عليه ديوانا تاما هو «جُدّة عروس البحر» الذي يتطلب ــ وحده ــ دراسة تحليلية مستقلة بما تضمنه من الأشعار، وما تناثر فيه من الأمثال الشعبية والتعابير الشعبية الزاخرة بالفكاهة والمرح.

هكذا سمع قنديل نبض مجتمعه وبلده، وتملاه بحس الفنان، وارتوت نفسه بنقيع مركز من الحياة الشعبية والجو الشعبي فيما بعد، ميّز أدبه وشخصيته في السلوك والمشاعر والأفكار، فاستحق لقب «الأديب البلدي»، الذي خلعه عليه صديقه حمزة شحاتة، يرحمهما الله.

الجبل الذي صار سهلا

هذا العمل ــ في أصله ومبناه ــ وصف لرحلة من جدة الى مكة فالطائف عبر سلسلة جبال السراة، ومن أبرزها جبل

«كرا»، وذلك لأداء فريضة الحج بعد أن تخرج الكاتب مباشرة بمدرسة الفلاح بجدة. وهو يحاول أن يصف لنا الجبل حين كان ما يزال في رسوخه وشموخه، كما يصف لنا الجبل، وقد عملت فيه الآلات والأيدي في عام ١٣٧٦ للهجرة لتحويله الى سهل، في أكبر مشروع عمراني لتيسير رحلة المصطافين والحجاج.

ولم يقف الكاتب بالرحلة عند وصف مشاهدها ومواقفها المرحة والجادة، ولكنه مد رؤاه الى ذكريات شتى، إستطرد اليها. وهي ذكريات متفرقة متباينة.ولكن الجبل ــ جبل كرا الذي تحول الى طريق سهل يظل مدار الرؤيا والموقف والحدث. فالكاتب يصف الجبل من خلال الرحلة، كما يصف الرحلة من خلال الجبل، وهو ــ أيضا ــ يتجاوز الرحلة يمد رؤاه الى أشياء بعيدة. ولكنه يظل ملتصقا بالجبل يبثه حبه ووفاءه. فكأن «جبل كرا» قد تحول ــ في رؤيا قنديل الفنان الى رمز كبير لكل الثوابت الراسخة الشامخة للأصالة والوطنية والتراث ــ الى رمز كبير لكل الثوابت والتراث، وتاريخ أجيال عرفت معنى النضال والشظف والقناعة.

إن «الاصالة والوطنية» هما الخطان الأساسيان في هذا العمل الأدبي الكبير، ينفصلان ويتوازيان حينا، ويتلاقيان ويمتزجان حينا آخر. ولكن الجبل يجسد ــ ابدا ــ وحدة المكان والمشاعر ويحمي هذا العمل من التمزق والشتات. فالكاتب يبث «جبل كرا» حديث الحب والنجوى، حين كان ما يزال في شموخه، ويرثيه إذ صار سهلا. وكأن الكاتب يحيا حلما لذيذا يرفض الواقع الذي حوَّل الجبل الى سهل. وهو ــ اذا صح التعبير ــ «رفض مجازي»، لا رفض حقيقي. فهو لا يرفض الواقع في حد ذاته، ولا يرفض قانون التحول والتجدد، بل هو يخشى ان تفرّط الأجيال الجديدة في ماض زاخر بالعطاء والارث والمجد.

إن رؤيا الكاتب ــ في اخصر عبارة ــ تجسد خشية لاهبة المشاعر ان ينسى «جيل السهل» كفاح وأصالة «جيل الجبل» فتنقطع الصلة بين الماضي الذي نحبه، والحاضر الذي نسعى اليه موصولا بالجذور.

هذا هو العمل في مضمونه.. أما في شكله فهو مزيج متجانس من أدب الرحلة والسيرة الذاتية والرواية، وهذه العناصر الفنية كلها تتفاعل وتتآزر في حركة قصصية درامية حية نابضة بالمشاهد والشخصيات والأحداث، ممتزجة في الوقت نفسه بتيار شعري شفيف، يطل بين الحين والحين، والجبل ينظم هذه العناصر كلها ليشغل وحدة المكان والوجدان كما أسلفنا القول.

من هنا...!!

فإن ظاهرة «الاستطراد» في هذا العمل، هي الأخرى عنصر فني مقصود. وظّفه الكاتب ــ عن عمد ــ ليحقق به مقاصد فنية. يقول الكاتب في الفصل الأول: «ستكون حكايتنا عن الجبل الذي صار سهلا.. بمثابة مسلسلة استعراضية.. على طريقة المسلسلات البوليسية ترد فيها الذكريات موصولة كاملة أو مبتورة الأطراف.. وتنقسم ــ بتلك الصفة أو بهاتيك أو بكلتيهما معا ــ ان تصور هذه السلسلة بعض جوانب الماضي البعيد القريب في بلادنا، وتشمل ــ فيما تشمل ــ تسجيل بعض مازال واندثر من أماكن وشخصيات.. وعادات مأثورة ومسميات.. وسيكون الاستطراد كشرط أساسي. حجر الزاوية فيها، سواء طال به اللف والدوران، أو قصرت به الجادة..».

وفي الفصل السادس يقول: «فقد شرطت في بداية هذه الحكاية، حكاية الجبل الذي صار سهلا، أنني سأذعن لمقتضيات الاستطراد ما بين حين وآخر، مما قد يجعل الحكاية نفسها عبارة عن عبارات.. أو ذكريات من الاستطرادات الموصولة المتكررة.. لا رابطة فيها بين لون ولون، وبين نوع ونوع..».

هكذا جعل الكاتب من «الاستطراد» قاعدة فنية مؤكدة. ومن ثم راح ــ بين الحين والحين ــ يستخدم عبارات مثل: «ووصلا لما انقطع من حديث»، «وتستدعيني الأمانة التاريخية.. أن أقوم باستطرادة قصيرة من استطراداتي المألوفة هنا، والمشروطة على القارىء من بداية الأمر». وقوله: «وبأسلوب الشيء بالشيء يذكر...».

وتأتي قصة «الجبل الذي صار سهلا» غنية بالشخصيات، وفي مقدمة هذه الشخصية «شخصية الجبل» نفسه وهي شخصية تتفاعل مع الكاتب، يقول في الفصل العشرين: «واني لأحس أن الجبل قد أصبح جزءا من روحي.. بهامته المرتفعة.. بوديانه المنبسطة.. بكل جزئياته..».

وفي الموضع ذاته ترد عبارة أخرى يشخص الكاتب فيها الجبل، ويحيله الى عالم انساني رحيب. والعبارة تؤكد ما قررناه من أن الجبل هو المدار للأحداث والمشاهد والشخصيات. والخيط الذي يؤلف بين كل هذا الشتيت المفرق. يقول الكاتب: «وفي نفسي الآن حنين لأن نقص بقية الرحلة إشباعا لنهم، وإرواء لغليل قديم حديث، لولا أنني في حكايتي هذه إنما استهدف الجبل وحده، وبداية للرواية وختاما لها، دون شريك له ناء عنه، محافظة على السر بيني وبينه، ووفاء له بما اوعدته في مدى سحيق غابر، أن أسجل عنه أثره في نفسي».

وإذ قد انعقدت أواصر الألفة بين الكاتب وبين «جبل كرا»، وما دام الجبل قد صار مدارا ومحورا لعمله الروائي، فقد صار هذا الجبل ـــ حين صار سهلا ـــ في عداد الأموات. ومن ثم فهو جدير بالرثاء اذ صار سهلا «.. جاء ذكر حبيبي وصديقي وزميلي كرا: الجبل الذي صار سهلا.. وحيث أني لم أنسه قط.. فقد انحدرت تلقائيا بعض العبرات تكفيرا عن خطيئة التقصير في حقه.. وكان مني على بضع خطوات.. أو أمتار». ويتكرر في غير موضع، رثاء قنديل لصديقه الجبل الذي صار سهلا، واختفى عن ناظريه وجوده الشامخ الراسخ، وهو أشبه برثاء الذكريات والأحباب والحب القديم في أشعار الطلليات القديمة.

وقد تعلم الكاتب من الجبل ـــ قبل أن يصير سهلا ـــ دروسا في التأمل والصبر: «وسلكت منه وفيه أولى خطواتي بدروب الفلسفة، لا تغني عن الشعر.. ثم باندماجي به، كاشفا لي ـــ في صراحة وبساطة ـــ أعماق قلبه. تسللت داخل البوابة الخضراء، لأستقبل ـــ هناك ـــ دنيا الشعر، لا تعترف بالفلسفة، ولا تضع أرقاما للتاريخ، عازفة تمام العزوف عن نصب الموازين، أو مطففة لأقوال الناس في الناس».

وكلام الكاتب هنا يؤكد ما أسلفنا القول فيه من قبل، من أن احمد قنديل شاعر قبل كل شيء، يضيق بالتفلسف. وهو ـــ بعد ـــ فنان فيه عفوية تضيق أشد الضيق بإخضاع فنه لعقلانية الأرقام والموازين.

على أن تشخيص الكاتب للجبل لا يقف عند حدود هذه العبارات المبثوثة في تضاعيف عمله الأدبي، بل يتجاوزها الى رؤية أكثر شمولا وتحديدا، وهي ـــ ايضا ـــ رؤية الفنان في قدرته على التصوير، وإطلاق حواسه، ودقة ملاحظته، مازجا ذلك كله بحسه وإحساسه. فهو يرسم لنا صورا رائعة لحيوانات جبل كرا، المفترسة والوادعة: «.. وفي مسرانا ليلا ـــ وكان الوقت ظلاما دامسا.. كنا نسمع عاليا وفي وضوح تام ـــ وقع الحوافر من ذواتها الهاربات من طريقنا، تبتعد مؤقتا لحين مرورنا عن الجادة المطروقة.. ولقد كنت أشعر فعلا ببعض رهبة، عندما أسمع تلك الأصوات، وعندما قيل لي أنها وقع حوافر وأقدام وأظلاف حيوانات بعضها مفترس بالطبيعة والغريزة وبالفطرة.. وبعضها مفترس بحكم الجوع الكافر، حين لا تجد مأكلها السهل المعتاد..».

كما يصور لنا كيف عمد الحمارون الى «الغناء الحدري»، يتخذونه وسائل دفاع ضد هذه الحيوانات المفترسة.

وقنديل يسوق لك حديثه عن الحيوانات وعن أغاني الحمّارين مساقا تصويريا، يشعرك بحضور حي مرئي ومسموع للأشياء، ويشعرك بالتصاقها الحميم بالجبل، حتى أنها تغدو ملامح حية لشخوص الحي الشامخ.

كذلك يرسم لنا قنديل ملمح الصلابة في الجبل وهي صلابة ممزوجة بالعطاء اللين السخي، فيصور لنا صخور جبل كرا، وهي تنبجس بالماء الزلال يرده العابرون والمقيمون من سكان الجبل الى جانب «البسطات أو الأزقة الترابية تقع من قلب الجبل موقع الواحة من الصحراء».

أما «قرود جبل كرا» فهي ـــ وإن كانت حيوانات ـــ فإن الكاتب يحرص على أن يمنحها ـــ في تصويره الفني ـــ وجودا متميزا مستقلا، فيقول: «ولقد اعجبتني خيلاؤها، وشعورها بالسيادة في موطنها.. ترمقنا ـــ نحن الآدميين ـــ في نظرات استنكار.. وكأنما نحن دخلاء على مناطق نفوذها.. حتى لكأنها تقول لنا.. لقد كان لا بد لكم، قبل أن تصلوا الى هنا ـــ أن تطلبوا منا الاذن بالمرور في قلب الجبل».

بل إنه ليتصور جماعات القردة الساكنة جبل كرا «أمة قائمة بذاتها في جوانب وأطراف وأعالي هذا الجبل العتيد.. أمة تحكمها عادات وتقاليد.. وعرف متوارث.. تماما كبعض بني آدم..».

ويستطرد الكاتب ـــ على طريقته ـــ ليحكي قصة قصتها عليه عمته ـــ وهو طفل صغير ـــ عن تلك القرود التي تسكن جبل كرا، وكيف سرقت الطرابيش من أحد الباعة العابرين للجبل، وكيف استطاع بالحيلة ان يسترد تلك الطرابيش.

ولا يقف الكاتب عند هذا الحد، بل يتحدث عن نباتات كرا وأعشابه الطبية، والعطرية، والتي منها: السنامكي والنعناع والفاغية والريحان، وترتبط بهذه النباتات محبة عميقة لبلده، التي صار الجبل رمزا له، بما حواه من النباتات وأنواع الحصى والحجارة والصخور التي تحوي أنواعا من المعادن الخام المطمورة.

ذلك هو الجبل: جبل كرا بطل هذا العمل الأدبي الكبير، كما شخصه الكاتب: عالما من العطاء والسخاء والحب، ممتزجا بوجدان الأديب وحسه الفني، ووجدانه الشعبي وانتمائه الوطني، مع إحساس دقيق بالمكان.

والى جانب شخصية الجبل: البطل الحقيقي في هذا العمل الأدبي، تطالعك شخصيات بشرية، ومن أبرزها شخصية «الشيخ عودة» أو «الشيخ عودة اودة اودة». أكبر الحمّارين ـــ بتشديد الميم ـــ سنا في ركب الحجيج، فهو يبلغ الثمانين، ومع ذلك يفيض صحة وحيوية، ويمتلك حاسة الفنان، في

قدرته على سرد حكايات الاتراك، كما لا يتورع عن سرد قصصه مع زوجه الفتاة الصغيرة التي تزوجها حديثا. وتتسق شخصية «الشيخ عودة» مع شخصية الجبل، في قوته وتفجره بالحياة والطاقة. بل تتسق أيضا مع شخصية الكاتب نفسه، الذي يبدي نحو شخصية الشيخ عودة قدرا غير ضئيل من التعاطف والاعجاب.

كذلك تطالعنا شخصية «الجدابي الصغير» الحمّار — بتشديد الميم — الذي يقود ركوبة الأديب، ذلك الفتى البدوي الصغير، الطيب القلب، الخصب الخيال، الثرثار في ظرف محبب الى نفس الكاتب. وقد انعقدت وشائج الود بين الكاتب وبين (الجدابي الصغير) بحكم تقارب السن «فلقد توثقت بيننا المودة والألفة، حتى لقد أصبحنا في أيام — وكأنما هما ذخيرتا سنوات ونسيجا عمر طويل، واستمر تسلقنا بعض الصخور بالجبل أو تسللنا من بينها.. أو سيرنا أحيانا بالسهل في الدرب الخاص تشرف على بقية الركب.. وتمر بنا الرحلة حلوة جميلة.. جامعة مانعة.. كما يقول المناطقة في فكرة السُّلم الذي كنت حديث عهد بقراءته في الفلاح».

أما ذكريات الكاتب التي كان يفجرها حديث الجبل، والتي تمثل الماضي البعيد. أو لنقل: تتجاوز زمان الرحلة ومكانها. فهي ذكريات منوعة الشيات والملامح، بعضها يتصل بزمن الطلب في مدرسة الفلاح، وبعضها يتعلق بثقافته وثقافة أبناء جيله من الأدباء، أو بصور اجتماعية تراثية، كصورة الراوي للسيرة الشعبية في المقاهي، وصورة الأواني الفخارية التي كان يستخدمها أهل الحجاز قبل الثلاجات والمبردات، والتي كانوا يطلقون عليها «الشرِّاب»، هكذا بالشين المنقوطة المكسورة، ومفردها «شرب». وكيف كانوا يفتنون في صنع «غطاء قماشي دقيق من الشاش» لكل شربة «مدندس الأطراف بالترتر وبالتللي.. ويأتي بعد هذا الغطاء القماشي وفوقه غطاء من النحاس او الصفر المصقول. وفي قمة هذا الغطاء النحاسي قبة صغيرة مجلوة براقة».

وينتقل من هذه الصورة التراثية الى صورة صوتية يسجل لنا فيها «نداءات الباعة» على سلعهم كنداء باعة التين البرشومي بقولهم «وشرب من المعسل يليد «ويليد هذه تخفيف يا وليد، التي هي — قطعا — تصغير يا ولد »، والشرح — هنا — للكاتب نفسه. «وهكذا فقد ألف الباعة الجوالون في الأزقة والحواري من أبناء مدننا الحبيبة — في سابق العصر والأوان — أن يؤلفوا في نداءاتهم على بضائعهم ولها أغان بسيطة — خفيفة الروح». ورغم بساطتها — فإن قدرتها تتمثل في أن الأغنية وحدها تدلك على نوعية الشيء المباع دون ورود أو ذكر الصنف المنادى عليه بصراحة، وذلك مضمونه ومؤداه أرقى أساليب الدعاية البلدية».

هكذا يتتبع القنديل أدق الظواهر الشعبية وأكثرها طرافة، ويقف — طويلا — عندها، ويصفها ويحلل دلالاتها في حفاوة وحب بالغين. وهكذا تمتد ذكرياته البعيدة عن الجبل الى الماضي بسخائه التراثي مما يجعل «الجبل الذي صار سهلا» معرضا للصور الشعبية في العادات والتقاليد والمآكل والمشارب والفنون والأدوات المستعملة. بل الى معرض لصور شتى من الماضي الثقافي والأدبي الذي صنع مسيرة الحياة الثقافية في الحاضر.

أما اللغة التي كتب القنديل بها «الجبل الذي صار سهلا» فأبرز سماتها العفوية والتدفق. وهي عفوية — تتسق من كل الوجوه — مع عفوية الكاتب، ومع عفوية العمل الأدبي ذاته. وهذا الاتساق في اللغة مع طبيعة العمل وطبيعة الأديب ذاته، هو أبرز الدلائل على نجاح أي عمل أدبي، وصدق تشكيله.

وقد مضى حديث لنا عن الصورة في أسلوب القنديل، ونؤكد هنا ما قلناه من أن القنديل «كاتب مصور»، يجسم المشاهد والمسموعات والمذوقات، مطلقا حواسه البصرية والسمعية والذوقية واللمسية في ثراء فني يحمل دلالة المعايشة والاندماج والاستغراق.

وتطالعنا في لغة «الجبل الذي صار سهلا» كلمات شعبية وتراكيب شعبية مثل:

- «الشابوراه أم الكمون وحبة البركة» وهي نوع من الخبز الشعبي المقدد، لذيذ الطعم جدا.
- «الفريحة» بتشديد الراء المكسورة من الفرح، وهو لفظ يطلق على أنواع من المسليات مثل «اللوز والحمص والفصفص والفشار والحلوى الحمصية بالاضافة الى بعض الخرز الملون».
- المعدوس، أي أكلة العدس مطبوخا.
- السليق، الأرز مطهوا بطريقة خاصة.
- السَّحلب، نوع من الشراب اللذيذ.
- السوبيا، شراب أيضا.
- التاسوسة، نوع من أحذية النساء في الحجاز.
- التليك، نوع من الشباشب للرجال.
- الخيار بالشرس، خيار ينقع، مملحا، في الماء الذي يحفظ فيه الجبن، يكسبه مذاقا خاصا.
- جحا أولى بلحم ثوره، مثل عامي، يضرب لأحقية كل إنسان بما يمتلكه.

٭ هادا الشخص ما ينبلع لي من زور، كناية عن الكراهية.

وليس من وكدنا أن نستقصي المعجم الشعبي العامي في كتاب «الجبل الذي صار سهلا». فالمثال يبصرنا بجانب من الجوانب الاسلوبية في لغة القنديل، ويؤكد لنا شعبية منزعه، وقد صنع القنديل من ذيل ديوانه «عروس البحر» معجما لما ورد في الديوان من الاعلام والكلمات الشعبية، زاخرا بالطرافة. وكتاب «الجبل الذي صار سهلا» بحاجة الى مثل هذا المعجم، عند إعادة طبعه.

والقنديل ـــ الأديب الضاحك المضحك ـــ ما يزال يفتن ويبتكر في طرائق الفكاهة والإضحاك: فمن ذلك على سبيل المثال ذكره لأسماء بعض اصدقائه الأدباء على سبيل المداعبة الخفيفة الظل. ونورد هنا بعض الأمثلة.

أ ـــ مداعبته لصديقه الراحل احمد السباعي بقوله: «ومعذرة لهذا الاستطراد، فإن حماسة الوطنية قد ركبتني قسرا من فروة شعر الرأس، حتى أخمص القدم. فلنهتبلها فرصة واقتراحا. ويلاحظ هنا ـــ للتاريخ ـــ ان كلمتي: الاهتبال والأخمص هما من تسجيلات الشيخ احمد السباعي وأوليائه المحفوظة له بالتسامع، دون الحق الأدبي له فيهما بالطبع».

ب ـــ ويداعب صديقه عبدالقدوس الأنصاري، يرحمه الله، والزيدان في موضع حديثه عن الأزيار التي كانت تستخدم لحفظ ماء الشرب وتبريده، فيقول: «...وربما تمكن احد المؤرخين والمنقبين عن الآثار أمثال الأنصاري والزيدان، ومن نحا نحوهما، من تحقيق هذه النسبة في التسمية الزيرية.. حرصا على نقاء تراثنا البلدي الصميم من الشوائب».

وأحيانا تتحول فكاهة القنديل الى ضرب من السخرية التي تقطر بمرارة النقد لبعض مفارقات الواقع: يقول ـــ متحدثا عن سوق العرب ـــ احدى اسواق منى الشعبية في موسم الحج: «وسوق العرب ـــ في حينه بمنى من أشهر أسواق الحجاج عامة ـــ لا العرب وحدهم ـــ لما يباع مما يعرض فيه من شتى الحاصلات.. ومن أعجب أنواع الصناعات المحلية.. المخالفة كليا لما كان يعرض «عكاظ» من آراء وأفكار وشعر وخيال.. ومن طرفي سوق العرب وعكاظ الكبيرين اليوم والأمس، تستطيع ان تدرك كيف طغت حاجات المعدة العاجلة على مطالب الروح الخالدة..».

هكذا مزج قنديل ـــ في العبارة المتقدمة ـــ الجد بالدعابة.

ولكن تعبيره الضاحك الساخر ـــ هنا ـــ ما يلبث ان ينتهي حزينا جادا.

وما تزال فكاهة القنديل بحاجة الى دراسة خاصة، تكشف عن جانب من جوانب فنه الأصيل، كواحد من ظرفاء الأدب، ومن أدباء الظرف في أدبنا العربي المعاصر.

رحم الله احمد قنديل، الذي عبّر عن نفسه أدق تعبير بقوله في رثاء صديقه «حمزة شحاتة»:

ونسعى الى «المركاز» ليلا بلهفــة
نمد لــه كعبا تشدد بالكعـــب
تدير شؤون الــرأي جدا اعدتــه
اليك مزاحــا فالدعابة من دأبي
فنحيا كما نهوى الحياة... نظنهــا
لدى مجمع «المركاز» مدرسة الشعب

وبعــد...

فإن «دار تهامة» التي نشرت العديد من الكتب في سلسلة «الكتاب العربي السعودي»، فأتاحت لقراء العربية الاطلاع على صفحات مضيئة في سفر أدبنا وفكرنا العربي المعاصر، قد نشرت «الجبل الذي صار سهلا» أول ما نشرت من سلسلتها الدورية.

ولدى القراء الذين يقدرون لها حسن الصنيع أمل في إعادة طبع هذا العمل الأدبي، بحرف طباعي أكبر حجما، وبهوامش مزودة ببعض الشروح الموجزة جدا للتعابير الشعبية الواردة بالكتاب، أو جعل ذلك معجما شاملا مستقصيا للتعابير الشعبية. وللاعلام الذين أورد لهم الكاتب ذكرا في كتابه، مع شرح للتعابير، وتعريف موجز بالأعلام، على أن يذيل الكتاب بهذا المعجم. وحبذا لو تبنت دار تهامة فكرة «الأعمال الكاملة»، فنشرت للقنديل ولغيره أعمالهم الكاملة على مراحل، خاصة وأن الباحثين والقراء ما يزالون يجدون مشقة في العثور على كتب نفذت طبعاتها وتعذر العثور عليها □

٭ لم اجد ـــ في حدود ما تسنى الاطلاع عليه ـــ أكثر من هذا الاسم الثلاثي للأديب. أما مولده، فهو في بعض المصادر، في عام ١٣٢٩هـ «تاريخ جدة للأنصاري ٦١٢»، وفي أكثرها عام ١٣٣٢هـ «كعبتي قبلتي ٩»، و «غلاف قصته الشعرية: قاطع طريق»، وغيرها. ولم يتعرض «اعلام الحجاز» للمولد، ولم يزد على الاسم الثلاثي للأديب، وهو «احمد صالح قنديل».

صفحة في اللغة:

أخطاء في الجمع

اعداد: نجيب محمد القضيب/هيئة التحرير

* في بعض الاحيان يقع خطأ في صياغة الجمع من المفرد، فيرد على صيغة تختلف عن صيغة المفرد المشتق منه ذلك الجمع. وقد يرجع السبب في ذلك الى السماع او الكتابة التي ألفناها ومثل ذلك «ثقاة» بالتاء المربوطة، وهي مفرد «ثقة» وهو خطأ مشهور. والصواب هو «ثقات»، بالتاء المفتوحة، أما «ثقاة» فهي جمع «ثاقي» مثل «غازي» «غزاة»، و «رامي» «رماة» كذلك «حادي» «حداة».

* ومن الأخطاء المشهورة أيضا التوهم بين وزن «فعايل» بالياء و «فعائل» بالهمز، وتذكر كتب الصرف القاعدة المتبعة وهي كما يقول الدكتور عبده الراجحي في كتابه «التطبيق الصرفي»، اذا كانت الواو او الياء بعد ألف «مفاعل» أو ما يشبه هذا الوزن في عدد الحروف ونوع الحركات، على شرط أن تكون الواو أو الياء مدة ثالثة في المفرد مثل صحيفة صحائف وأصل هذا الجمع هو صحايف، و «صحيفة» على وزن «فعيلة» والياء فيها زائدة، وهي حرف مدٍّ فاذا جمعت تصبح «صحايف» فتقع الياء بعد ألف «مفاعل» فتقلب الياء همزة «صحائف» وكذلك «عجوز» وجمعها «عجائز»، و «طريقة» وجمعها «طرائق». وتنطبق هذه القاعدة على الألف مثل «قلادة» وجمعها «قلائد». أما إذا كانت الواو أو الياء أصلية فإنها لا تبدل همزة مثل «معيشة» وجمعها «معايش» من الفعل «عاش، يعيش» وكذلك «قسورة» وجمعها «قساور». وقد أجاز مجمع اللغة العربية في القاهرة إلحاق المد الاصلي في صيغة «مفاعل» بالمد الزائد في صيغة «فعائل» أي قلب عين «مفاعل» همزة سواء كان أصلها واوا أو ياء. أما السماعي فيحفظ ولا يقاس عليه مثل «مصيبة» وجمعها «مصائب».

* من الأخطاء المتداولة في الجمع هي استعمال المفرد ويقصد به الجمع ومنها «أوان» والجمع «آونة» مثل «بين آونة وأخرى اصنع كذا وكذا»، «بين أوان وآخر اصنع كذا وكذا» والفرق بين التعبير الأول والثاني هو أن الأول في حالة الجمع والثاني في حالة الافراد. ويقول صاحب الصحاح: «قال يعقوب: فلان يصنع ذلك الأمر آونة، اذا كان يصنعه مرارا ويدعه مرارا». قال ابو زيد:

حمال اثقال أهل الـود آونة
اعطيهم الجهد مني بلـه ما اسع

ومثل هذا الخطأ ايضا «الآنية» ومفردها «الإناء» مثل «الأزمنة» ومفردها «زمان».

* ومن الأخطاء الشائعة في الجمع استعمال جمع المؤنث بدلا من جمع المذكر مثل: «جنودنا البواسل» والصواب هو «جنودنا البسلاء». ذلك لأن «البواسل» هو جمع «باسلة» وهي على وزن «فاعلة» وجمعها على وزن «فواعل» وهذه تختلف عن صيغة «فاعل» وجمعها «فواعل» مثل «خاتم» و «قالب» و «طابع» وجمعها «خواتم» و «قـوالب» و «طوابع».

وهذا الوصف «باسلة» يختلف عن الوصف الخاص بالمؤنث العاقل الذي لا تدخله تاء التأنيث مثل «طالق» وجمعها «طوالق» و «كاعب» وجمعها «كواعب» □

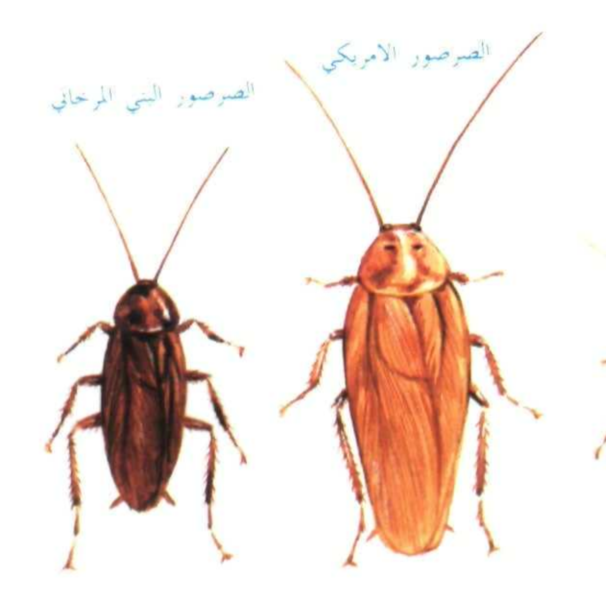
* * *

الصَّراصِيرْ حِشرات لا تقهر

بقلم : سليمان نصر الله / هيئة التحرير

حسم الصرصار مزود بشعيرات تعمل كجهاز انذار مبكر، يحذر الصرصار من أية أخطار متوقعة عن طريق ارسال اشارات متتابعة تستغرق الواحدة منها ٠,٠٥٤ من الثانية.

يغطي جسم الصرصار غلاف شمعي سميك لا ينفذ منه الماء، فاذا ما تعرض هذا الغلاف للكشط سرعان ما يفقد الصرصار الماء من جسمه ثم لا يلبث أن يجف ويضمحل ثم يموت.





تعلو أعضاء اللمس في الفك العلوي من فم الصرصار نتوءات مسامية ذات حساسية شديدة للأطعمـــة الحلـوة والمالحة والحامضة، ويستخدم الصرصار هذه الأعضاء للتذوق المسبق حتى يتجنب تناول المواد السامـة القاتلة.



يتألف قرن الاستشعار لدى الصرصار من ١٣٠ مقطعا، ويستدل بواسطتها على الأماكن الرطبة التي يألفها.

رَغم التّطور الهائل في إنتاج أصناف فعالة من المبيدات الحشرية، يظل الصرصور على قائمة الحشرات التي تقاوم وتقاوم، حتى لا يحرم الانسان من رؤيتها، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وقد دلت الاكتشافات الاحفورية على أنّ الصّراصير وجدت على ظهر البسيطة منذ مئات الملايين من السنين ولما تنقرض، خلافا لبعض الحشرات والحيوانات الأخرى، كالديناصورات والماموثات، التي انقرضت منذ زمن طويل.

لا تكاد المرأة تلمح صرصورا يجري في أركان مطبخها أو منزلها بصورة عامة حتى تصاب بهلع وذعر شديدين، وتروح تصرخ بأعلى صوتها، فيهرع اليها الزوج يستطلع الخبر، فتشير اليه بأصبع ترتجف، وقد امتقع لونها، قائلة: لقد اختبأ هناك! ويظن الزوج أن لصا قد تسلل الى منزله دون أن يشعر. ولكن الزوجة المذعورة تشير الى شق صغير تحت المغسلة. وهل يعقل أن يختبئ لص في ذلك الشق الصغير؟ لا بد وأنه صرصور. ويهدئ الزوج من روع زوجته المذعورة. وتبدأ معركة ضارية بين الرجل المسكين وذلك الصرصور المراوغ، الذي يقبع في شق مكين، يصعب الوصول اليه. والمرأة معذورة في ذلك، فالصرصور من الحشرات القبيحة الشكل الكريهة الرائحة، التي تقلق راحة الانسان وتسبب له الازعاج، فضلا عن نقلها لطائفة من الأمراض.

وإذا رجعنا الى معاجم اللغة العربية نراها تلقي ضوءا على هذه الحشرة التي ينفر الانسان من منظرها البشع.



فالصرصور لغة مشتق من «صر» بمعنى صوت، ومن الفعل الرباعي، صرصر بمعنى أصدر صوتا متكررا. قال عز وجل مشيرا الى ضيف ابراهيم من الملائكة، عندما بشروه بغلام عليم، وقد بلغ من الكبر عتيا: ﴿**فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم**﴾. والصرة هي الصياح والجلبة. وقال الحق تبارك وتعالى: ﴿**واما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية**﴾ أي ريح شديدة البرد، وقيل شديدة الصوت. ونقول: صرَّت الأذن، أي سمع لها طنين، وكذلك نقول: صرَّ القلم وصرَّ الباب، إذا سمع له صرير. والصرصور، وجمعها صراصير — Cockroaches، هو نوع من الحشرات الوثابة، يصيح صياحا خافتا متكررا، وأكثر صياحه في الليل، ولهذا سمي «صرار الليل»، ويطلق عليه أيضا الجدجد، وهو جنس حشرات من فصيلة الجدجديات ورتبة مستقيمات الأجنحة. ويطلق العرب على نوع منه «بنت وردان»، وهي دويبة كريهة الريح تألف الأماكن القذرة في المنازل، وهي ذات ألوان مختلفة. ويعتبر الصرصور من«الحشرات الليلية — Nocturnal Insects»التي تنشط في الظلام، وكأني بالانسان عندما يرى الصرصور المزعج ليلا يتمثل قول المتنبي، الذي تزوره الحمى في الليل فقط:

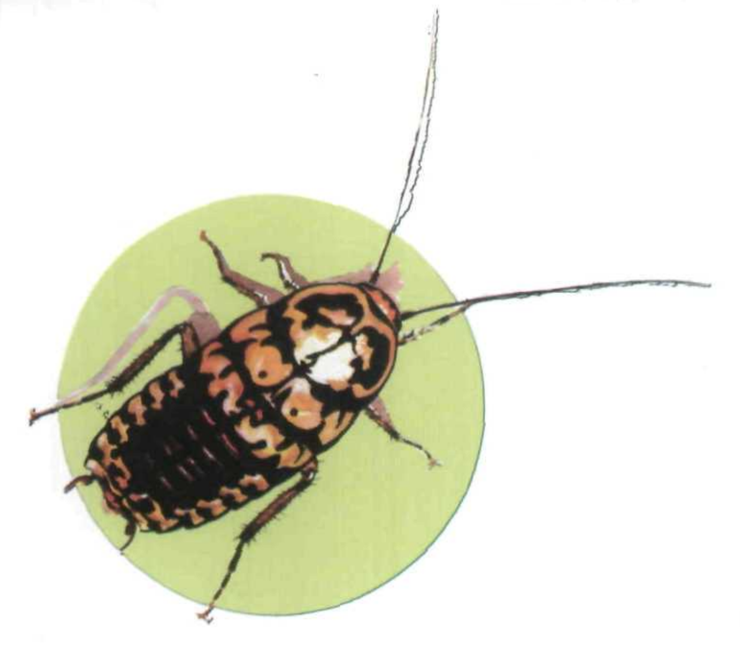
وزائرتي كأن بها حياء
فليس تزور الا في الظلام

وما أقذر هذه الصراصير، التي لا تجد غضاضة ولا حياء في ترك برازها على المواد الغذائية والأواني المنزلية، وتحمل الى الطعام ضروبا شتى من الجراثيم التي تعلق بأرجلها وأجنحتها. والصراصير تأكل كل شيء تقريبا كالأطعمة المخزونة والنفايات، وهذا ما ساعدها على البقاء، رغم مكافحتها باستمرار بأنواع كثيرة من مبيدات الحشرات. فإذا تعذر عليها الوصول الى المواد الغذائية الدسمة،ولا سيما المواد السكرية، فإنها تقنع بأكل الورق والصمغ والملابس، والصابون والاخشاب، وأوراق الشجر، وغير ذلك مما تيسر لها. واذا انعدم الطعام، فإن بعض أنواعها، كالصرصار الامريكي — American Roach المعروف علميا باسم «Periplaneta Americana» يستطيع العيش على مخزونه الجسدي من الغذاء لثلاثة أشهر، كما أنه يعيش لشهر واحد بدون ماء. ليس ذلك فحسب، بل ان الصرصور يتحمل الاشعاعات أكثر من الانسان لصلابة جلده. وهناك فصيلة تقاوم درجة التجمد لمدة تصل الى ٤٨ ساعة. فلا غرابة إذن أن تستمر معركة الانسان مع هذه الحشرة المؤذية الى ما شاء الله.

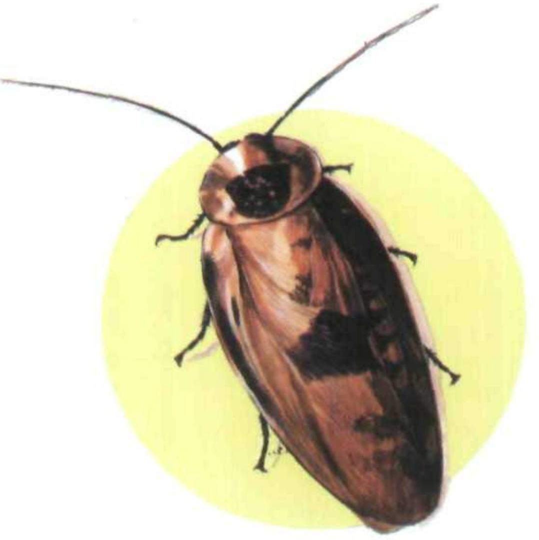
فالصراصير حشرات يتعذر السيطرة عليها كليا، ولهذا فإنها تشكل تهديدا مباشرا للصحة العامة، فهي تحمل الفيروسات والبكتيريا، التي تسبب أمراضا كثيرة كالتهاب الكبد، والشلل، وحمى التيفوئيد، والطاعون، والسالمونيلا وغيرها. إضافة الى ذلك فإن الصراصير تتسبب في إفساد الطعام بتلويثه بالبكتيريا أو بالتوالد فيه، كما يفعل الذباب في اللحوم والأجبان ونفايات الطعام.

ويصنف علماء الحشرات — Entomologists الصراصير من قبيلة مفصليات الأرجل — Arthropoda ورتبة مستقيمات الأجنحة الصوتية — Vocal Orthoptera. وتعتبر قبيلة مفصليات الأرجل من أكبر القبائل الحيوانية وأكثرها أهمية، لارتباطها ارتباطا وثيقا بغذاء الانسان وصحته وبيئته. وهي تضم عدة طوائف أهمها طائفة الحشرات التي تشمل أنواع الفراشات، والخنافس، والذباب، والقمل، والنمل، والنحل، والزنابير، والصراصير، والبراغيث. كما تشمل طائفة العنكبوتيات كالعناكب والقراد والعقارب.

والصرصور بيضوي الشكل مسطح الجسم، بني اللون، سداسي الأرجل، له عينان كبيرتان مركبتان ذو قرنين طويلين للاستشعار. والصرصور الذكر له زوجان من الاجنحة عادة، أما الأنثى فهي عديمة الأجنحة في الأعم الأغلب أو ذات جناحين اثاريين. ويتميز الصرصور بجسم



أملس منضغط من أعلى إلى أسفل، ويحتوي الرأس على أجزاء فم سفلية الوضع، وقرون استشعار شعرية طويلة جدا، وعيون مركبة كبيرة. ويتألف الصدر من ثلاث حلقات عريضة وكبيرة، فيه أرجل طويلة مهيأة للجري أو المشي، وعليه أجنحة أمامية جلدية وخلفية غشائية، لا تمكنه من الطيران إلا نادرا، وعند اشتداد الحرارة. أما البطن فينتهي بزوج من القرون الشرجية القصيرة المقفلة في كلا الجنسين، وينتهي بطن الذكر علاوة على ذلك بزوج من المجسات الشرجية.



ويقدّر علماء الحشرات أن هناك ٣٥٠٠ نوع من الصراصير، يعيش أكثرها في المناطق الاستوائية، حيث الدفء والرطوبة، فهي تألف الأماكن الرطبة كأنابيب الحمامات، وبواليع المطابخ. وبعض أنواع الصراصير يؤثر الاقامة في الشقوق المظلمة، كشقوق الخزائن، والادراج. والصرصور يجتنب الضوء عادة، ويخرج ليلا التماسا للطعام. وتعزى رائحة الصرصور الكريهة الى افرازات تفرزها غدد معينة في جسمه. ويذكر العلماء أن الصراصير وجدت على ظهر البسيطة منذ أزمان موغلة في القدم، فقد دلت الاكتشافات الاحفورية في ولاية الينوي الامريكية، بإشراف البروفسور «فرانك كاربنتر» من جامعة هارفارد، على أن الصراصير تعود في ظهورها على وجه الأرض الى العصر الكربوني — Carboniferous Period، أي منذ نحو ٣٥٠ مليون سنة، وذلك استنادا الى طبعة لصرصور على حجر عثر عليه أثناء القيام بالحفريات. والجدير بالذكر أنه لم يطرأ تغيير على شكل الصرصور منذ ذلك الحين حتى اليوم، فالتشابه بين صرصور العصر الكربوني وصرصور اليوم كبير. والمعروف عن الصراصير أنها تهاجر من منطقة الى أخرى تبعا للظروف المعيشية، ودليل ذلك انه وجدت أنواع في الولايات المتحدة الامريكية، موطنها الأصلي اوروبا، واسيا، وأفريقيا، وأمريكا الجنوبية، وتستقر غالبا في المطاعم والمخابز، والأسواق المركزية. وهي تنتقل من قارة الى أخرى على ظهر السفن التي تمخر البحار والمحيطات.

والصراصير تدافع عن نفسها إذا ما هوجمت بأساليب متعددة، فهي ذات أجسام ملساء صقيلة، ولذا يتعذر على المرء إمساكها، إضافة الى ذلك قدرتها على الطيران لمسافات قصيرة، وتحورها لملاءمة البيئة. كما أن حجمها الصغير، وصلابة الغلاف الخارجي لأجسامها العديم النفاذية للماء، وخفتها تساعدها على الجري السريع والاختفاء بلمح البصر.

وهناك نوع من الصراصير يتكور على نفسه كلما داهمته الاخطار حتى يصبح كرة صلبة يصعب القضاء عليها. أما صراصير فلوريدا فإنها ترش مهاجميها بسائل كريه الرائحة مثير للأعصاب، تماما كالقنابل المسيلة للدموع. تلك هي حكمة الخالق سبحانه وتعالى، حين أودع في هذه المخلوقات الصغيرة أسباب الدفاع عن نفسها إزاء الأخطار التي قد تحدق بها.

وأكثر أنواع الصراصير شيوعا ثلاثة، هي: الصرصور الامريكي — Periplaneta Americana، والصرصور الالماني — Blatella Germanica، والصرصور الشرقي — Blatta Orientalis. أما أكثر الأنواع الثلاثة انتشارا في المملكة العربية السعودية فهي الصراصير الامريكية والصراصير



الشرقية، ويقل وجود الصراصير الالمانية فيها، وفقا لنشرة أعدتها «الشركة السعودية للكيماويات والمبيدات الحشرية والمطهرات المحدودة» تحت عنوان «آفات الصحة العامة وطرق مكافحتها». وتمتلك هذه الشركة مصنعا حديثا للمبيدات الحشرية في المدينة الصناعية الأولى بالرياض، وتقوم ببحوث قيمة في هذا المجال، بالتعاون مع جامعة الملك سعود بالرياض، والهيئة العربية السعودية للمواصفات والمقاييس، ووزارة الصحة، ووزارة الزراعة، وبعض المراكز العلمية داخل المملكة وخارجها. فالصرصور الامريكي كبير الحجم، كثير الترحال، مألوف في كثير من البلدان. ويبلغ طول



الحشرة الكاملة منه نحو أربعة سنتيمترات، وهو بني اللون، وتوجد الأجنحة في الجنسين وتفوق البطن في الطول. أما الصرصور الألماني فهو صغير الحجم لا يزيد طوله على سنتيمتر واحد، وعرض الحلقة الصدرية الأولى نصف سنتيمتر، عليها شريطان طوليان لونهما أسود. ولونه بصورة عامة إما بني فاتح أو بني ضارب الى الصفرة، وتوجد الاجنحة في الذكور والاناث، وهي تفوق البطن في الطول. والصرصور الشرقي هو وسط بين النوعين الآخرين، إذ يبلغ طوله نحو ٣ سنتيمترات، وعرض الحلقة الصدرية الأولى نحو سنتيمتر واحد. ولون الذكر بني داكن، أما الأنثى فسوداء اللون. لا تغطي الأجنحة البطن في الذكر، كما أنها مختزلة في الاناث، وبذلك يسهل تمييز انثى الصرصور الشرقي عن أنثى الصرصور الامريكي.

أما عملية تكاثر الصراصير فهي مستمرة على مدار السنة، حيث يتم التزاوج بين الذكر والانثى ابتداء من المداعبة بقرون الاستشعار وحتى فقس البيض. والمعروف علميا أن مستقيمات الأجنحة كالصراصير ذات تطور ناقص، إذ لا تشمل دورة حياتها على الطور اليرقي أو العذراء، فهي تنتقل من بيضة الى حورية الى حشرة كاملة. فأناث الصراصير تضع البيض داخل أكياس أو كبسولات محكمة، ثم لا تلبث هذه الأكياس أن تنشق فتخرج منها الحوريات، وعندما تكتمل الأعضاء التناسلية في الحوريات تصبح حشرات كاملة. فالحورية تشبه الحشرة الكاملة في الشكل الخارجي، مع عدم وجود الأجنحة وعدم اكتمال تكوين الأعضاء التناسلية. وتختلف مدة طور البيض تبعا لنوع الصرصار وعوامل أخرى كالحرارة والرطوبة النسبية. وتنسلخ الحشرة أثناء نموها وتحولها من بيضة الى حورية الى حشرة تامة النضج.

وأناث الصراصير تضع بيضها في أكياس وأغلفة لزجة لدنة، تصنعها من إفرازات خاصة، لا تلبث أن تصبح صلبة كغلاف الكبسولة. ولون هذه الأكياس بني غامق، يختلف شكلها تبعا لنوع الحشرة وعدد البيض. ففي الصرصور



الامريكي يحتوي الكيس على ٢٠ بيضة، ولكنه يحتوي على ١٦ بيضة في الصرصور الشرقي. أما كيس البيض في الصرصور الألماني فيحتوي على ٤٠ بيضة. وأكثر الأنواع تزاوجا وتكاثرا هو الصرصور الألماني حيث يستمر التزاوج من شهر ابريل الى شهر سبتمبر. وعند اكتمال الجنين في البيض ينشق الكيس من حافته الظهرية وتخرج الحوريات. أما فترة حضانة البيض فتتراوح بين شهر ونصف الشهر الى ثلاثة أشهر تبعا للنوع واختلاف درجات الحرارة والرطوبة النسبية. وعندما تخرج الحوريات من البيض عند الفقس يكون لونها أبيض مائلا الى الصفرة، ثم يأخذ بالتحول تدريجيا حتى يصبح بنيا بمرور الوقت. وتنسلخ الحورية نحو سبع مرات حتى تبلغ مرحلة النضج التام وتغدو حشرة كاملة، ويستغرق هذا الطور مدة تصل الى ستة أشهر في الامريكي والالماني، وحوالي سنة في الشرقي.

وبالاضافة الى انواع الصراصير الثلاثة الشائعة الآنفة الذكر، هناك نوع من الصراصير التي تعتبر من الآفات الزراعية، ويطلق عليها صراصير الحقل، ومنها فصيلتان احداهما يسمى علميا — Gryllotalpa والآخر يسمى Liogryllus Campestris. ويبلغ طول الصرصور من الفصيلة الأولى أكثر من خمسة سنتيمترات، ويعيش غالبا تحت الأرض، ولكنه قد يطير ليلا، ويتغذى على الحشرات الأخرى، وهو ممقوت لدى المزارعين، لأن الانفاق التي يحفرها في الأرض تخترق جذور النباتات وتمزقها. فأرجله الأمامية قوية جدا ومسلحة بمخالب للحفر تشبه مخالب الخلد الأمامية. ولو أمسكت بصرصور الحقل من هذه الفصيلة بيدك واقفلتها عليه، فإنه يدفع نفسه بقوة للخارج من بين الأصابع. ويختلف صوت هذه الفصيلة عن بقية الحشرات مستقيمة الأجنحة، فبدلا من الصرصرة المتقطعة يصدر عنها صوت متصل غليظ. وتبني الانثى عشا تحت الأرض تضع فيه ما بين ٢٠٠ و ٣٠٠ بيضة، وينتشر هذا الصرصور في البلدان الاوربية. أما صراصير الحقل من الفصيلة الثانية فهي قصيرة وسمينة، لونها أسود، ويبلغ طولها نحو ثلاثة سنتيمترات، ويوجد خط أصفر على ظهرها. وفي شهر مايو تجلس الذكور على أفواه الحفر وتصرصر بقوة في دفء الشمس، وفي الليل تخرج لتأكل أوراق الأشجار والأغصان الصغيرة، وهي تواصل غناءها. وهناك نوع من الصراصير يطلق عليه صرصور الأشجار، لأنه يعيش بين الأشجار وليس على الأرض. والطريف ان نوعا امريكيا من هذا الصرصور يصرصر تبعا لدرجة الحرارة، فلدى حساب عدد النغمات في ١٥ ثانية واضافة ٣٩ اليها، تحصل على درجة الحرارة الفرنهايتية لذلك الوقت.

ولما كانت الصراصير تشكل خطرا مباشرا على الصحة العامة، فقد أولى علماء الحشرات وخبراء المعامل البيولوجية ومراكز البحوث، إنتاج مبيدات حشرية فعالة اهتماما كبيرا، وذلك للحد مما تسببه هذه الحشرات من ازعاج للانسان وانتشار للأمراض. ويرى خبراء الشركة السعودية للكيماويات والمبيدات الحشرية والمطهرات المحدودة «سكيدكو» أن أفضل المواد وآمنها لمكافحة الصراصير هي مادة «الكوبكس ٢٥٪ — Coopex 25%» القابل للبلل حيث يتم مزج هذه المادة بالماء بنسبة معينة، ورشها في الشقوق والبواليع وجميع الأماكن التي ترتادها الصراصير، كالمخازن الكبيرة ومستودعات الأغذية، وحاويات القمامة، وغيرها. وهناك مواد أخرى ذات فعالية كبيرة، منها على سبيل المثال لا الحصر، نيو بيبثرين — Neo Pybuthrin وهي مادة بيريثرويدية عالية الفعالية، ورسيتك — Resitek، وهو مبيد مجهز على صورة سائل مركز قابل للاستحلاب يخفف بالماء للرش على الأسطح، ورزيديوال — Residual الذي يحتوي على مادة الفنيتروثيون التي تدخل جسم الصرصور عن طريق اختراق الهيكل الخارجي للجسم، والملاثيون — Malathion، وغيرها من المبيدات الحشرية، التي لا تنفك تظهر في السوق من وقت لآخر، كنتيجة للجهود الدائبة والدراسات المستفيضة التي يضطلع بها الخبراء والعلماء في سبيل مكافحة الصراصير وغيرها من الحشرات□

المراجع:

(١) موسوعة الحيوان.

(٢) مجلة «ناشونال جيوغرافيك»، عدد يناير ١٩٨١م

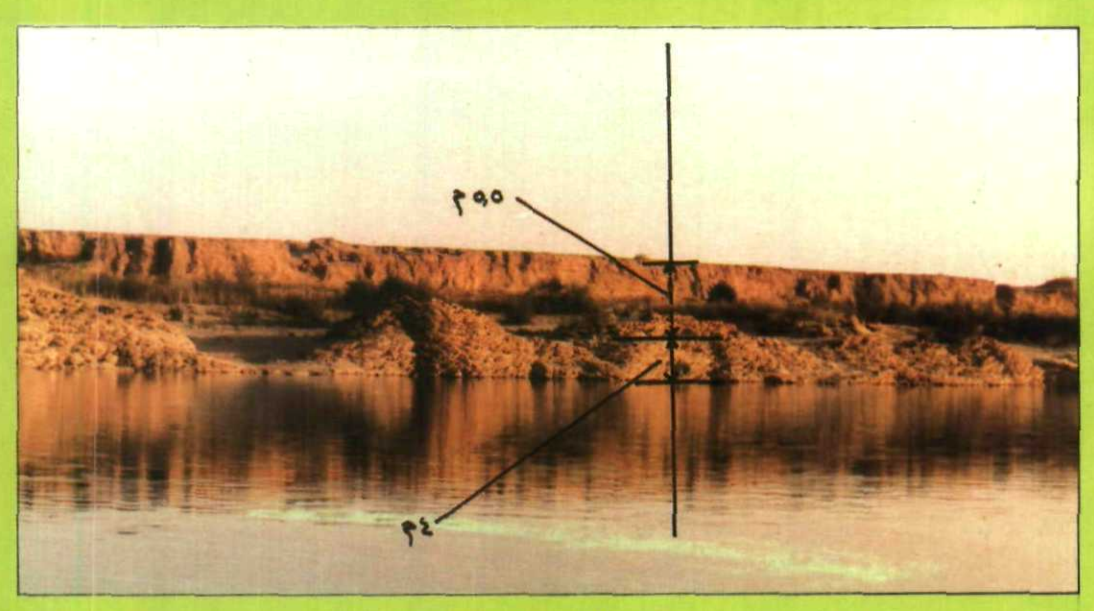
(٣) آفات الصحة العامة وطرق مكافحتها (سكيدكو).

عيون الأفلاج

بقلم: الأستاذ عبد الرحمن بن عبد العزيز النشوان / الرياض

تقع منطقة الأفلاج بين دائرتي عرض ٤٥ َ ٢٠ ْ - ١٥ َ ٢٣ ْ شمالاً وبين خطي طول ١٥ َ ٤٥ ْ - ١٢ َ ٤٨ ْ شرقاً، ويبلغ أقصى امتداد لها من الشمال إلى الجنوب ٢٧٠ كيلومتراً يحدها شمالاً الخرج والحوطة والحريق ويحدها شرقاً المنطقة الشرقية، ويحدها جنوباً السليل، ويحدها غرباً القويعية ووادي الدواسر.

ومنطقة الأفلاج واحدة من أهم المناطق التي اعتمدت ومازالت تعتمد في نموها ونشأتها وتطورها، طوال تاريخها، اعتماداً كلياً على الموارد المائية. وقد كان هذا السبب الرئيسي في قيام كثير من الحضارات والدويلات القديمة مثل "حضورا" التي ظهرت بأرض اليمامة (ومملكة كنده) التي امتدت حضارتها لتشمل منطقة وسط الجزيرة العربية* كما أنها كانت طريق القوافل من جنوب الجزيرة العربية باتجاه بلاد الشام والعكس[1]، وقد كانت المياه متوفرة بدرجة كبيرة، حتى أنها كانت تسيح على سطح الأرض منبعثة من العيون لتغمر أجزاء من أراضي المنطقة. ومع قلة الأمطار التي تسقط على المنطقة (٦٫٣مم، في يناير و١٤مم في ابريل)[2] الا أن كمية المياه الجوفية المخزونة في طبقاتها ساعد على قيام نشاط زراعي واسع.



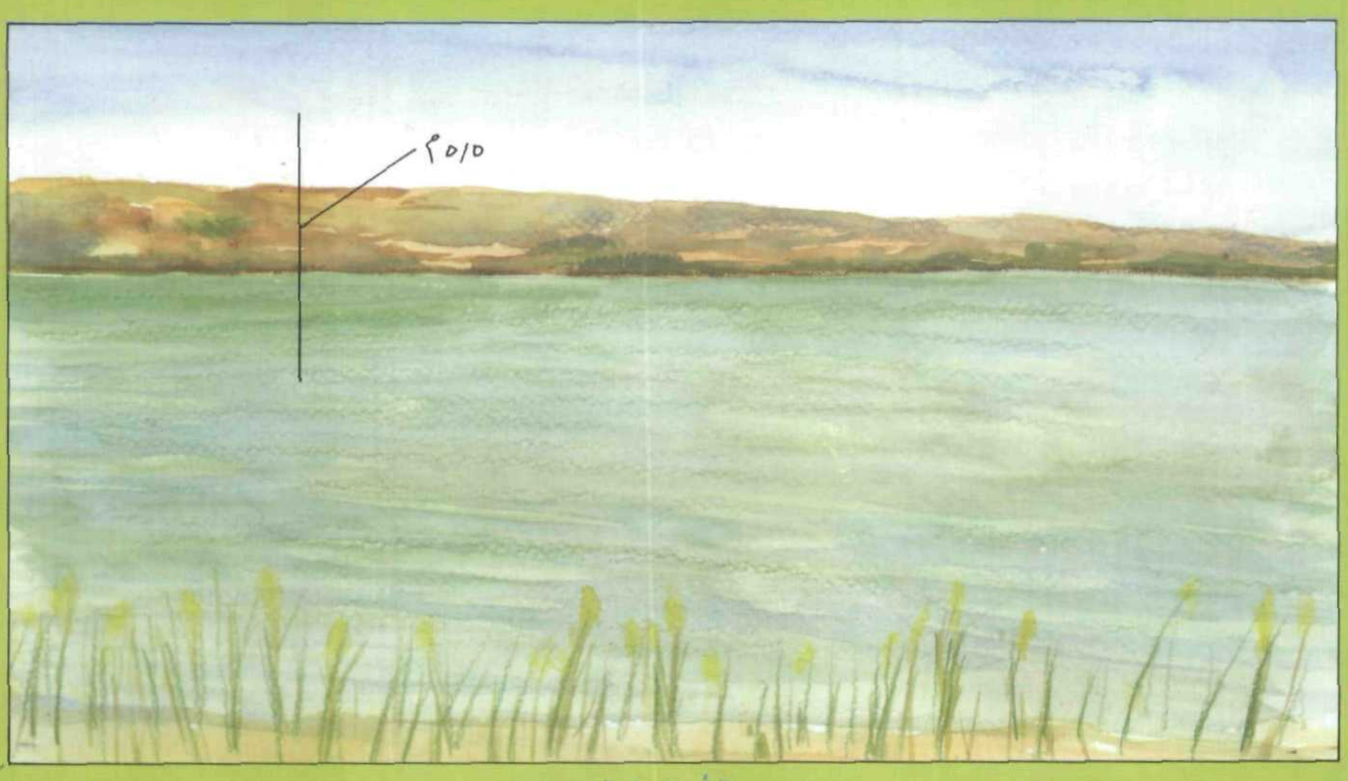
مستوى عين الرأس في شعبان ١٤٠٦هـ.

لذلك اعتمد سكان وسط الافلاج على مياه العيون في ري مزارعهم منذ القدم، واستخدموا لذلك نظاما دقيقا جدا، يعد في الحقيقة من أهم وأبرز أساليب الري في ذلك الوقت، يسمى «نظام السواقي». وترجع فكرة نشأتها الى أن مستوى الماء يرتفع في العيون، فيقوم الناس بعمل خنادق مكشوفة من منطقة العيون الى الموقع الذي يرغبون زراعته وكانوا يقومون بهذا العمل وفق حسابات دقيقة لمناسيب الأرض، وقياس مقدار انحدار قاعدة الخندق، بحيث يجري الماء في الساقي بكمية تكفي لري مساحات معينة من الأرض.

يقومون بحفر باقي الخرز بحيث يتخذ الساقي المسار والميل المطلوب، ولا يجري توصيل الخرز بعضها مع بعض من أسفل إلا بعد أن يتم حفر جميع الأجزاء المغطاة من الساقي.

وبعد اكتمال اعمال حفر الساقي يقومون بتوصيل الأجزاء التي تركت بدون حفر بحيث يرتفع الماء في الساقي بطريقة لا تمنع من مواصلة الحفر.

وعندما يجري الماء في الساقي ويعرفون المناطق التي تحتاج الى مزيد من الحفر، او التعميق فإنهم يقومون بذلك حتى تجري المياه بالكمية والسرعة المناسبة. وعند الانتهاء من الحفر



مستوى عين الرأس في شوال ١٤٠٥هـ.

لكن الحال لم يستمر على ذلك بسبب انخفاض مستوى الماء في العيون مما اضطرهم الى اقامة مزارعهم بعيدة عن العيون في اراضي اكثر انخفاضا، بحيث يكون مستوى المزرعة اكثر انخفاضا من مستوى العين، فيصل الماء اليها مرة اخرى، ونظرا لبعد المسافة وانخفاض مستوى الماء، فقد قاموا بتطوير نظام السواقي بطريقة تضمن استمرارية تدفق الماء باضافة نظام «الخرز» الى النظام السابق. والخرز حفر مستطيلة الشكل يبلغ طولها مترين وعرضها ٨٠ سنتيمترا، وتحفر حتى تصل الى مقدار متر تحت سطح الماء وعلى بعد يتراوح بين ٦ و١٢ مترا تقريبا تحفر خرزة أخرى باتجاه المنطقة التي سوف تزرع.

ويبدأ الحفر من أسفل الخرزة أفقيا بهدف توصيل الخرزتين، وتساعدهم في ذلك طبيعة الأرض الجصية من عدم انهيار سقف او جوانب الساقي ووفق حسابات يعرفونها

وجريان الماء، يقومون بتغطية الخرز بألواح من الجص المتوفر في المنطقة أما نهاية الساقي بالقرب من المزارع فانها تترك مكشوفة نظرا لأن العمق قليل والحفر بسيط.

ومن المتعارف عليه أن لكل ساق شخصا مسؤولا عنه يختاره أصحاب الساقي ويعرف «بأمير الساقي» وهذا الشخص يقوم بتوظيف العمال اللازمين للقيام بأي أصلاح في الساقي، ودفع أجور العمال ومحاسبة المشتركين في الساقي كل حسب حصته من المياه ويعطى أمير الساقي مقابل عمله عشر تكاليف الصيانة، وكل ساق من هذه السواقي مقسم الى أربعة عشر أو ستة عشر جزءا «حصة أو سهم» والجزء الواحد يقال له «وقعة» وكل وقعة تعادل اثنتي عشرة ساعة أي يساوي طول النهار او الليل. والوقعةمقسمة ايضا الى ثمانية أجزاء، لذلك يكون نصف الوقعة ست ساعات، وكل يأتيه الماء بقدر ما يخصه من عدد الوقعات او اجزائها، فإذا كانت حصته من



عين الرأس بعد الانخفاض.

مياه الساقي تعادل نصف وقعة، وجاءه الماء يوم السبت مثلا، فانه يأتيه في نفس اليوم من الأسبوع القادم اذا كان عدد وقعات الساقي أربع عشرة أي سبعة أيام. أما اذا كانت الوقعات ست عشرة وقعة فإن الماء يأتيه من نفس الساقي يوم الأحد من الأسبوع القادم، وقد يكون المزارع مشتركا في اكثر من ساق، ولكن نظام توزيع المياه هو نفسه بالنسبة للساقي الثاني. واذا كانت مزرعته كبيرة ولا تكفيه حصته من المياه فإنه يقوم باستئجار المياه من شخص آخر. فقد يوجد شخص له حصة من مياه الساقي لكن ليس له مزرعة، او شخص لديه فائض من المياه ليس بحاجتها ولا يستغلها بكاملها في مزرعته، وبهذا النظام الدقيق يستطيع كل مزارع ان يحصل على كفايته من الماء دون انقطاع.

ويمكن تتبع ما يزيد على سبعة عشر ساقيا قديما، تخرج من منطقة العيون الى المزارع القديمة، ولا يوجد منها الآن سوى عشرة سواق، كان أغلبها يستخدم حتى وقت قريب. وتعرف باسمائها وهي:

السابر/ وموافق/ الوجاج/ إنباع/ المدسوس/ المبخور/ برابر/ العويد/ سمحان/ النشمي.

وكانت السواقي تنتج ما مقداره ١٠٠ لتر في الثانية بالتقريب أي ما يعادل ٨٦٤٠ مترا مكعبا في اليوم الواحد، ويقوم ساقي المبخور وموافق والمدسوس والوجاج والسابر بري مزارع السيح الشمالي، اما السواقي التي تقوم بري السيح الجنوبي فهي برابر، إنباع، العويد وسمحان.

ومن السواقي الهامة غير هذه العشرة ساقي الناهض وساقي سويدان الا أن العمل توقف فيهما منذ وقت مبكر[٣].

ولكن حتى بقية السواقي العشرة الأخرى لم يستمر العمل فيها لوقت أطول اذ كان انخفاض مستوى الماء في العيون سببا لتوقف العمل بها، مما ادى الى إهمال كثير من المزارعين مزارعهم ونخيلهم والتي بلغت مساحتها ٧٤ هكتارا فبدأت مساحة الأراضي الزراعية بالتناقص الواضح، مما حدا بوزارة الزراعة الى اجراء دراسة عن جدوى انشاء مشروع الري والصرف بالسيح وتم بعد الدراسة البدء في المشروع عام ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م وانتهى العمل منه عام ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، وكانت طاقته الانتاجية ٨٥٢٢٠٠٠ مترا مكعبا، بأنبوب قطره ٥٠ سنتيمترا ولمسافة ٦ كيلومترات، بتكلفة ٧٦ مليون ريال.

نشأة العيون

نشأت عيون الافلاج لاسباب (هيدروجيو كيميائية) فالتتابع الطبقي الجيولوجي في المنطقة يشير الى وجود تكوين جيولوجي يعرف باسم تكوين «هيت» وهذا التكوين يتألف من سلفات الكلس والجص اللاماني تتخللها طبقات من الحجر الجيري والدولوميت.

وقد حدث تحلل وذوبان لتكوين «هيت» بسبب تفاعل الجص اللاماني مع المياه الجوفية، ونتج عنه تكهف وفراغات تحت الأرض، ونتيجة للوزن الكبير لهذه الطبقات التي يزيد سمكها عن ٢٠٠ متر حدثت انكسارات وهبوط لها نتج عنه

فجوات كبيرة واسعة وعميقة وصدوع، وممرات سهلت حركة المياه الجوفية في المنطقة وأصبحت هذه الفجوات بمثابة بحيرات كبيرة تختزن المياه العذبة.

وهناك آراء تقول بوجود بحيرة كبيرة تمتد بطول ٣٥ كيلومترا وعرض ٥ كيلومترات ظهرت بعد الهبوط والانهيار السابق مباشرة. ويمكن تأكيد ذلك بدراسة الرواسب الجصية المحيطة بالعيون والمنتشرة في المنطقة، والتي تؤكد أنها كانت تحت بحيرة كبيرة تمتد من قرية البديع الى قرية السيح. وقد انحسرت وتقلصت هذه المساحة الكبيرة بسبب المتغيرات التي سادت مناخ شبه الجزيرة العربية بعد انتهاء العصر الجليدي الأخير، فأصبحت هذه البحيرات عبارة عن عيون متفرقة بلغ عددها ١٧ عينا، وتقع هذه العيون في منطقة الوسط بين قرية السيح من الشمال وقريتي مروان وسويدان من الجنوب، وتمتد على شكل شريط طولي من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي وتنحصر بين درجتي عرض ٢٢,٩° شمالا و٢٢,١٢َ° شمالا وبين خطي طول ٤٦,٤٢َ° شرقا و٤٦,٤٤َ° شرقا وعلى متوسط ارتفاع يبلغ ٥٤٠ مترا فوق سطح البحر.

أهم العيون الرئيسية في المنطقة

١ ــ عين الرأس: وتعتبر أكبر عيون المنطقة مساحة حيث تبلغ مساحتها ٢٨٠ ٠٠٠ متر مربع ويقدر متوسط عمقها ٢٨ مترا تقريبا، وأعمق نقطة قيست فيها بلغت ٤٢ مترا. وقد اختلفت هذه القياسات في الوقت الحاضر نظرا لانخفاض مستوى العين. ومقارنة بين مستوى العين عام ١٤٠٠هـ ومستوى العين في شوال عام ١٤٠٥هـ، نلحظ أن مستوى الماء انخفض بمعدل ٥,٥ امتار، وانخفض ايضا فيما بين شوال عام ١٤٠٥هـ وشعبان ١٤٠٦هـ حوالي ٤ أمتار، مما ادى الى اختلاف الاعماق واختلاف المساحة تبعا لذلك. فأصبح متوسط العمق لهذه العين تقريبا ١٨,٩ مترا وأعمق نقطة ٣٣ مترا.

وقد قامت وزارة الزراعة والمياه بانشاء محطة مشروع الري والصرف لتغذية قرى السيح بالمياه اللازمة للزراعة وذلك عام ١٣٩٥هـ حيث أصبح يضخ الماء من عين الرأس مع بداية عام ١٤٠١هـ بطاقة انتاجية قدرها ٤٥٠ لترا في الثانية.

ويمكن تعليل انخفاض الماء في عين الرأس الى سببين هما:

أ ــ النهضة الزراعية التي تشهدها المملكة العربية السعودية والقروض التي تقدمها الدولة للمزارعين ساعد على انتشار الزراعة بواسطة الرش المحوري والتي تستنفد جزءا ليس باليسير من مخزون المياه الجوفية.

ب ــ مشروع الري والصرف الذي يستمد مياهه من عين الرأس والذي تبلغ طاقة الضخ فيه ٤٥٠ لترا في الثانية.

٢ ــ عين أم هيب: تقع الى الشمال الشرقي من عين الرأس، وتبلغ مساحتها ٢٨ ٠٠٠ متر مربع ومتوسط عمقها تقريبا ١٣ مترا، وأعمق نقطة قيست فيها ٢٢ مترا وتقع على ارتفاع ٥٣٨ مترا عن مستوى سطح البحر.

٣ ــ عين الرويس: وتقع الى الجنوب من عين الرأس وتلي عين أم هيب في المساحة حيث بلغت مساحتها ٢٧,٠٠٠ متر مربع وبلغ متوسط عمقها ٢٣ مترا تقريبا وأعمق نقطة قيست فيها حوالي ٤٥ مترا.

٤ ــ عين الباطن: وتقع الى الشمال من عين أم هيب وتبلغ مساحتها ٩٠٠٠ متر مربع ومتوسط عمقها ٧ امتار تقريبا وأعمق نقطة قيست فيها ٢٠ مترا وتقع على ارتفاع ٥٣٩ مترا عن مستوى سطح البحر.

٥ ــ عين ام برج: وتقع الى الجنوب من عين أم هيب وتبلغ مساحتها ٧٨٠٠ متر مربع ومتوسط عمقها ٢٧ مترا واعمق نقطة قيست فيها ٣٤ مترا.

٦ ــ عين الشقيبات: وتقع الى الجنوب من عين أم برج وتبلغ مساحتها ٦٤٠٠ متر مربع ومتوسط عمقها ٢٨ مترا وأعمق نقطة قيست فيها ٣١ مترا.

٧ ــ عين أم البقر: وتقع الى الشمال من عين الرأس والى الجنوب من عين الشقيبات وتبلغ مساحتها ٣٩٠٠ متر مربع ومتوسط عمقها ١٨ مترا، وأعمق نقطة قيست فيها ٢٣ مترا.

٨ ــ عين الملية: وتظهر في أقصى الشمال الشرقي من منطقة العيون الى الشمال من عين الباطن وتبلغ مساحتها ٣٤٠٠ متر مربع ومتوسط عمقها ٧ أمتار وأعمق نقطة قيست فيها ٨ أمتار.

وترتبط هذه العيون مع بعضها البعض بممرات وكهوف في الطبقات الفاصلة بينها يؤكد ذلك انخفاض مستوى الماء في جميع العيون بدون استثناء □

المراجع:

• محمد بيومي مهران، «دراسات في تاريخ العرب القديم»، جامعة الامام، ١٣٩٧هـ ص/١٨٣ ص/٥٩٩.

(١) الامام شهاب الدين ياقوت الحموي، «معجم البلدان»، الجزء الرابع، بيروت دار «صادر للطباعة والنشر» ص/٢٧٢.

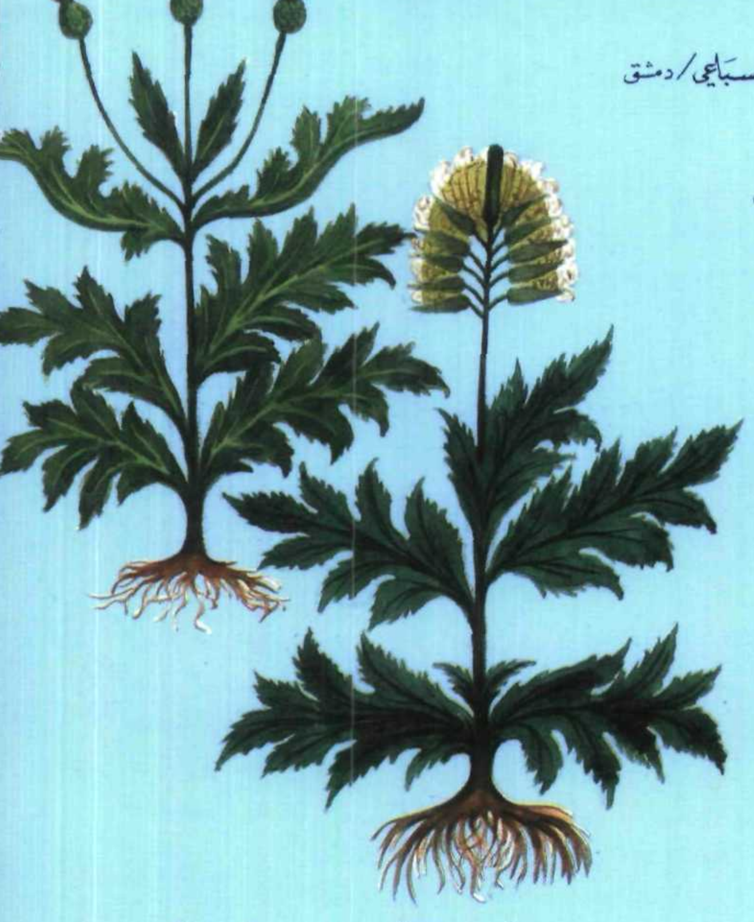
(٢) النشرات الهيدرولوجية لوزارة الزراعة والمياه ١٤٠٧هـ.

(٣) عامر حسين «عيون الافلاج، بحيرات وسط الصحراء»، المجلة الزراعية العدد الأول ص/٦ــ١٠ ١٤٠٤هـ.

المَدْرَسَةُ الأنْدَلُسِيَّة

في علم النَّبات والأعشاب

بقلم: الأستاذ فاضل السباعي/ دمشق



اهتم الأطباء العرب، قديماً، بالأدوية المفردة، التي تتألف غالباً من الحشائش والأعشاب. وظهر نفر منهم اختصوا بذلك، وأخذوا يتنقلون بين السهل والجبل ويجوبون البلدان بحثاً عن النباتات النادرة، فيتعرفون إلى خواصها ومنافعها ويكتبون في صفتها وآثارها في الأبدان. وبدا أن الأندلسيين كانوا أكثر عناية بذلك، فقد نبغ منهم عدد وفير حدثتنا المصادر التاريخية عنهم وعن مصنفاتهم الجليلة في علم النبات. وفي الحلقة الأولى* ذكرنا عدداً من مشاهيرهم، وفي طليعتهم الطبيبان الأندلسيان: "ابن جلجل" (من القرن الرابع للهجرة) و"ابن وافد" (من القرن الخامس). وفي هذه الحلقة نستعرض عدداً آخر من نوابغ المدرسة الأندلسية، وقد جعلنا بينهم - استكمالاً للبحث - اثنين من كبار الأطباء النباتيين المشارقة: "رشيد الدين الصوري" لمعاصرته لاثنين من الأندلسيين الذين وفدوا إلى المشرق، و"داود الانطاكي" لكونه آخر العقد الذي انتظم النباتيين العرب في مشرق ومغرب.

"أبو جعفر الغافقي" (المتوفى بعد ٥٦٠هـ)

نرى أننا مضطرون، هنا، الى أن نتجاوز عددا من العلماء الاندلسيين ممن عنوا بالأدوية المفردة، منهم «أبو بكر حامد بن سمجون» (كان حيا سنة ٣٩٢هـ)، و«أبو عبيد الله البكري» من مدينة مرسية، و«الشريف محمد الحسني» الملقب بـ«العالي بالله»، وقد صنف كل منهم في الأدوية المفردة كتابا استوفى فيه آراء المتقدمين عليه وتخطاهم بتصحيح وإضافة.

نتجاوزهم، لنتوقف قليلا عند واحد من هؤلاء، هو أبو جعفر، احمد بن محمد بن السيد الغافقي، من القرن السادس للهجرة.

يقول ابن أبي أصيبعة: «الغافقي إمام فاضل، وحكيم عاقل، ويعد من الأكابر في الأندلس. وكان أعرف أهل زمانه بقوى الأدوية المفردة، ومنافعها، وخواصها، وأعيانها، وأسمائها. وكتابه «الأدوية المفردة» لا نظير له في الجودة ولا شبيه له في معناه. قد استقصى فيه ما ذكره ديسقوريدس وجالينوس، بأوجز لفظ وأتم معني، ثم ذكر بعد قوليهما ما تجدد للمتأخرين من الكلام في الأدوية المفردة، أو ما ألمّ به واحد واحد منهم... فجاء كتابه دستورا يرجع اليه...»(١).

* راجع «العامل» عدد جمادى الآخرة ١٤٠٨هـ.

(١) «طبقات الأطباء»: ٥٠٠ و٥٠١. ومن المؤسف أن تكون معلوماتنا عنه ضئيلة، فإنه لم يصل الينا من المصادر التي تحدثت عنه الا «طبقات» ابن أبي أصيبعة، والذي جاء حديثه عنه لا يعدو اسطرا سبعة!

ولقد قيض لكتاب الغافقي من يختصره، في القرن الهجري التالي، ويسميه «منتخب كتاب جامع المفردات للغافقي»، والذي قام بهذا العمل هو العالم السرياني المستعرب «ابو الفرج غريغوريوس بن العبري» (ت ٦٨٥هـ — ١٢٨٦م).

وفي الثناء على كتاب أبي جعفر الغافقي، يشهد العالم الدكتور محمد زهير البابا فيقول: «ويمتاز الغافقي عن غيره باهتمامه الخاص بأوصاف النباتات ودقته في هذا الوصف، مما يجعله الأستاذ العربي الأول لعلم العقاقير في الأندلس، وعنه أخذ بقية المؤلفين»[٢].

«الشريف الادريسي» ت ٥٦٠ هـ)

ولم يكن من قبيل المصادفات أن ينضم الى علماء النبات أعظم الجغرافيين العرب: أبو عبدالله، محمد بن عبدالله بن ادريس، من ادارسة المغرب الأقصى. ولد سنة ٤٩٣هـ في سبتة، ونشأ وتعلم بقرطبة، ثم قام برحلة طويلة بدأت في لشبونة، الى قادس، ومراكش، والسودان[٣]... وذلك قبل أن ينتهي به التجوال الى جزيرة صقلية، التي كان المسلمون فيها يشكلون أغلبية السكان، وينزل ضيفا على صاحبها النورماندي «روجر الثاني — Roger II»، ثم يصبح من المسهمين في نقل العلوم العربية الى أوربة بحكم اتصاله ببلاط الملك في العاصمة «بلرم — Palermo»[٤]. وقد ألف لهذا الملك كتابه الشهير «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، الذي لم يفرغ منه إلا سنة ٥٤٨هـ (١١٥٣م)، وقد قيل فيه أنه أصح كتاب ألفه العرب في وصفه بلاد اوربة وايطالية[٥].

ويبدو أنه كان للشريف الادريسي هوى في علم النبات، فألف فيه كتابه «الجامع لصفات أشتات النبات»، وصف فيه ما شاهد من النبات في الأندلس والمغرب والسودان، وذكر فيه «الاسماء المطابقة للنباتات بلغات مختلفة: العربية والفارسية واليونانية واللاتينية والسريانية والعبرية والهندية والكردية والتركية والقشتالية والبربرية والقبطية»[٦]. وذلك ما جعل ابن البيطار يعول على هذا الكتاب لدى تصنيفه موسوعته «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية».

(٢) «مصادر الأدوية المفردة أو العقاقير في الطب العربي»، بحث في كتاب «أبحاث المؤتمر السنوي الثاني للجمعية السورية لتاريخ العلوم» نيسان ١٩٧٧م، مطبعة جامعة حلب ١٩٧٩م.

(٣) ما نطلق عليه، اليوم: أفريقية الغربية (بالغين المعجمة).

(٤) روجر الثاني (١١١١–١١٥٤م) أحد ملوك النورمان، الذين حكموا جنوبي ايطالية وصقلية. ورث الحكم عن أبيه، الذي رفض ضغوط الكنيسة الكاثوليكية لتنصير المسلمين في الجزيرة، وقد سار الابن على سياسة أبيه في تجنيد المسلمين في جيشه والاعتماد عليهم في مواجهة أعدائه من البيزنطيين وملوك الامبراطورية الرومانية المقدسة الطامعين في ملكه... على أنه شجع، في أواخر أيامه، حركة تنصير المسلمين واليهود، وأمر بإحراق قائد اسطوله «فيليب المهدودي» بعد أن شهدت جماعة عليه بأنه مسلم يكتم إسلامه!

انظر كذلك: الدكتور أمين توفيق الطيبي: «دراسات وبحوث في تاريخ المغرب والاندلس»، ص.ص/٤٦–٥٠، الدار العربية للكتاب، ليبيا — تونس، ١٩٨٤م.

(٥) ترجم الى اللاتينية والفرنسية والانكليزية والالمانية، وطبعت منه بالعربية خلاصات.

«أبو العباس النباتي» (ت ٦٣٧هـ)

وهنالك ثلاثة من أكابر العشابين، جمع الدهر بينهم في أنهم عاشوا في عصر واحد، أو في جيل واحد، أولهم: «أبو العباس النباتي»، اندلسي من أشبيلية؛ والثاني «رشيد الدين الصوري»، شامي من ساحل لبنان؛ والثالث «ضياء الدين بن البيطار»، اندلسي من مالقة تأتى لنبوغه أن يظهر في المشرق حيث صنف موسوعته الكبرى.. وإنما أسلكناهم معا في صعيد، إعتقادا منا بأنهم قد تلاقوا في المكان، مثلما تلاقوا في الزمان، في قاهرة مصر أو في الديار الشامية!

فأما أبو العباس النباتي، المولود سنة ٥٦١هـ، والذي يكنى بـ «ابن الرومية»، فقد أضاف الى ولعه بالنبات علما آخر هو: الحديث... يقول لسان الدين بن الخطيب انه كان «عجيبة نوع الانسان في عصره، وما قبله وما بعده، في معرفة علم النبات، وتمييز العشب، وتحليتها[٧]، وإثبات أعيانها، على اختلاف أطوار منابتها، بمشرق أو بمغرب، حسا ومشاهدة وتحقيقا، لا مدافع له في ذلك ولا منازع...»[٨].

والذي جعل أبا العباس، الاشبيلي، الذي طاف في أنحاء الأندلس[٩]، يتفوق على أقرانه، أنه قام برحلة «نباتية» الى المشرق، بدأها من المغرب الأقصى، وانتهى فيها الى العراق، مارا بمدن في المغرب، وأفريقية، وبرقة، ومصر، والحجاز، والشام. بل انه مضى، في رحلة البحث والتقصي عن النبات والحديث معا، الى المواطن التي توسّم ان يلتقي فيها بمحدثين وحفاظ يأخذ عنهم ما لم يسمع من الأحاديث الشريفة، فزار

(٦) حنيفة الخطيب: «الطب عند العرب»: ٢٢٤، الأهلية للنشر والتوزيع بيروت، ١٩٨٦م.

(٧) أي: وصفها.

(٨) «الاحاطة في أخبار غرناطة» ١:٢٠٨.

(٩) بما في ذلك غرناطة وجبلها، مما سوغ لابن الخطيب أن يترجم له في كتابه «الاحاطة» الذي وقفه على الاعلام من أهل غرناطة وما طرأ عليها أو ألم بها.





«حران»(١٠)، وبلغ مدينة «مرو» في بلاد خراسان! ليعود، بعد عامين، بكتاب علمي أطلق عليه اسم «الرحلة النباتية». ولئن قدر لهذا الكتاب ألا يصل الينا، فإنا قد وقعنا على نقول منه ضمتها، أيضا، موسوعة معاصره وتلميذه: ضياء الدين بن البيطار(١١).

"رشيد الدين الصوري" (ت ٦٣٩هـ)

وأما رشيد الدين بن أبي الفضل، المولود في مدينة صور واليها نسبته، فقد تفرد، بين العشابين، بأسلوب في البحث والتنقيب عن الحشائش والأعشاب والنباتات، لم يكن يضاهيه فيه أحد من علماء زمانه.

يقول عنه معاصرة ابن ابي أصيبعة انه ولد سنة ٥٧٣هـ، وكان «أوحد عصرة في معرفته الأدوية المفردة، وماهياتها، واختلاف أسمائها وصفاتها، وتحقيق خواصها وتأثيراتها»، متميزا على كثير من أربابها، مع مروءة لا مزيد عليها.

وقد أقام، أول عهده، بالقدس سنتين، يطب في البيمارستان الذي كان هناك. فمر بها، سنة ٦١٢هـ، «الملك العادل»(١٢) فصحبه معه الى القاهرة، وعمل عنده الى أن توفي، الملك، سنة ٦١٥هـ؛ فخدم بعده ولده «الملك المعظم» وشهد معه مصافات(١٣) عدة مع الفرنج النازلين في ثغر دمياط؛ ثم خدم «الملك الناصر» بن المعظم، الذي فوّض اليه رياسة الطب بالقاهرة، وبقي معه الى أن توجه الناصر الى الكرك، فعاد رشيد الدين الى الشام، وأقام بدمشق، «وكان له مجلس للطب والجماعة يترددون اليه»(١٤).

(١٠) موقعها، اليوم في الجنوب الشرقي من الجمهورية التركية.

(١١) لن نطيل، هنا، وقفتنا عند أبي العباس النباتي — الذي لُقّب وهو في المشرق بـ «محب الدين» فإن عندنا، في الاعداد، بحثا مستفيضا عنه، ترجمنا فيه لحياته الغنية بالعلم والعمل، وذكرنا خلاله وسجاياه، وتناولنا «اندلسيته»، ونزعته العلمية....

(١٢) شقيق صلاح الدين الأيوبي، وصاحب الأمر في مصر والشام بعده.

(١٣) «المصف والمصاف»: مواقف القتال في الحرب.

(١٤) «طبقات الأطباء»: ٧٠٠.

والذي نحب أن نتوقف عنده قليلا، ونتأمله كثيرا، هو ما حدثنا به معاصره وصديقه ابن أبي أصيبعة من أنه كان، في استقصائه النباتات في جبل لبنان وغيره من الأماكن، «يستصحب مصورا(١٥) ومعه الأصباغ والليق(١٦) على اختلافها وتنوعها (...) فيشاهد النباتات ويحققه، ويريه للمصور، فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأغصانه وأصوله، ويصور بحسبها ويجتهد في محاكاتها»! على أن طبيبنا، الباحث المدقق، «سلك، أيضا، في تصوير النبات مسلكا مفيدا، وذلك أنه كان يري النبات للمصور في إبان نباته وطراوته فيصوره؛ ثم يريه إياه أيضا وقت كماله وظهور بزره فيصوره تلو ذلك؛ ثم يريه إياه أيضا وقت ذواه ويبسه فيصوره. فيكون الدواء الواحد يشاهده الناظر اليه في الكتاب، وهو على أنحاء ما يمكن أن يراه في الأرض، فيكون تحقيقه أتم. ومعرفته له أبين»!(١٧).

وإنها لخسارة، للعلم ولتراث الانسانية، ألا يصل الينا كتابه «الأدوية المفردة» الذي تضمن تلك الرسوم والتصاوير!

"ضياء الدين بن البيطار" (ت ٦٤٦هـ)

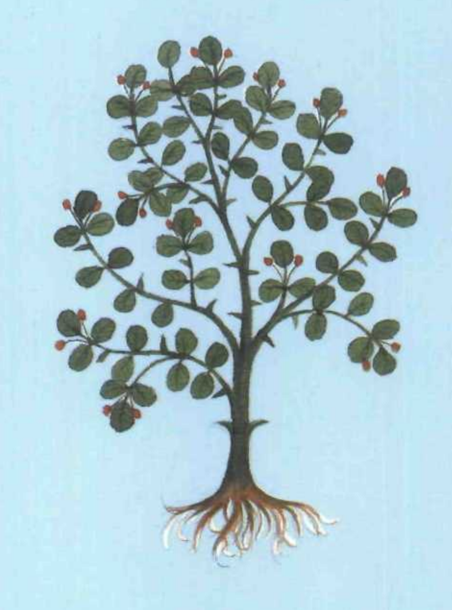
وأما ضياء الدين، عبدالله بن احمد، الأندلسي، المعروف بـ «ابن البيطار»، فهو «أوحد زمانه، وعلامة وقته، في معرفة النبات، وتحقيقه، واختياره، ومواضع نباته، ونعت أسمائه على اختلافها وتنوعها».

(١٥) وبلغة عصرنا: رساما!

(١٦) الليقة: الصوفة تجعل في الدواة.

(١٧) «طبقات الأطباء»: ٧٠٣.

المدرسة الاندلسية
في علم النبات والأعشاب



ولد في مالقة[١٨]. وبعد أن تعلم الطب، بدأ رحلته العلمية التي ما كان لها أن تنتهي... فقد زار المغرب وما يليه، «واجتمع بكثير من الفضلاء في علم النبات، وعاين منابته، وتحقق ماهيته». ويتابع معاصره وتلميذه، ابن أبي أصيبعة، القول: «سافر الى بلاد الأغارقة وأقصى بلاد الروم، ولقي جماعة يعانون هذا الفن، وأخذ عنهم معرفة نبات كثير، وعاينه في مواضعه»[١٩]. ثم اتصل بـ «الملك الكامل» الأيوبي، الذي جعله رئيس العشابين في الديار المصرية، وبعد أن توفي الكامل، سنة ٦٣٥هـ، استبقاه ابنه «الملك الصالح أيوب»، وحظي عنده واشتهر شهرة عظيمة[٢٠].

وقد صنف ابن البيطار عددا من المؤلفات، كان أهمها «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية»، الذي وضعه للملك الصالح، ويعد أوسع مؤلف في العقاقير والأدوية ظهر باللغة العربية. وقد استعان، في تصنيف هذه الموسوعة، بكل ما كتبه الأوائل، من يونانيين وعرب ومسلمين وغيرهم، من أطباء ونباتيين، في الأدوية المفردة، كما استعان بالكتب

(١٨) فيما يقول ياقوت الحموي: «مدينة بالأندلس، عامرة، من أعمال رية، سورها على شاطىء البحر بين الجزيرة الخضراء والمرية»، «معجم البلدان» ٥:٣٥.

وأقول: وتطل، من موقعها جنوبي الأندلس، على البحر الشامي (الأبيض المتوسط). ويقول الحميري: «وفيما استدار بها من جميع جهاتها، شجر التين المنسوب اليها، وهي تحمل الى مصر والشام والعراق، وربما وصل الى الهند»، «صفة جزيرة الاندلس»: ١٧٨، تحقيق لاڤي بروڤنصال، القاهرة (د. ت).

(١٩) وهذا يدل على أنه كان يتقن اللغة اليونانية.

(٢٠) «طبقات الأطباء»: ٦٠١.

ومعاجم النبات العربية، وفي طليعتها مصنفات ابي حنيفة الدينوري والشريف الادريسي، فضلا عن كتاب معاصره واستاذه ابي العباس النباتي «الرحلة النباتية»، كذلك بمؤلفات العلماء الاندلسيين السابقين عليه، مثل: ابن جلجل، وابن وافد، والغافقي.

وقد صنف، في هذه الموسوعة، نحوا من ألف وأربعمائة نبات أو عقار، منها أربعمائة لم يسبق لليونانيين أن عرفوها، وكان للعرب الفضل في ذكرها وتحليتها، واختبار منافعها ومضارها[٢١].

ولم تعرف سنة ولادة ضياء الدين في مالقة. ولكنه توفي بدمشق سنة ٦٤٦هـ، وذلك ــ كما يقول المقري ــ بأن «أكل عقارا قاتلا، فمات من ساعته»[٢٢].

"داود الانطاكي" (ت ١٠٠٨هـ)

وبعد أن طرأ على همة الأمة فتور، واعتراها خمول، وخيم ظلام، ظهر خلاله في بلاد الشام، أوائل الحكم العثماني، رجل أكمه ــ ولد مكفوف البصر ــ عني بالطب والنبات مثل تعلقه بالشعر والأدب، هو داود بن عمر الانطاكي، المولود في قرية «فوعة» من أعمال انطاكية[٢٣].

ويروي لنا داود كيف أخذ العلم في صغره... يقول: «فابتدأت عليه[٢٤] بقراءة المنطق، ثم اتبعته بالرياضي. فلما تم شرعت في الطبيعي، فلما أكملت اشرأبت نفسي لتعلم اللغة الفارسية، فقال: «يا بني إنها سهلة لكل أحد. ولكني أفيدك اللغة اليونانية، فإني لا أعلم الآن على وجه

(٢١) في النية وضع دراسة عن هذا النباتي العربي الخالد!

(٢٢) «نفح الطيب» ٣:٢٧٧.

(٢٣) هي، اليوم، جزء من لواء الاسكندرون المضموم الى الجمهورية التركية.

(٢٤) على رجل غريب، يقول داود انه من أفاضل العجم، كان قد جاء الى البلد وألقى فيه عصا التسيار، يدعى «محمد شريف».

الأرض من يعرفها احد غيري!»، فأخذتها عنه...»[٢٥].

وقد تنقل داود بين مدن الساحل الشامي، وأقام مدة في «جبل عاملة»، ثم مدة في دمشق وأخذ من علمائها، واستقر في أواخر المطاف بالقاهرة، واتخذ لنفسه حجرة في «المدرسة الظاهرية». وفي مصر ـــ كما يبدو ـــ صنف أهم كتبه «تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب»، في جزءين، شهر بين الناس «تذكرة داود»[٢٦].

وما يعنينا، هنا، من «التذكرة» هو الباب الثالث ـــ وهو أطول أجزاء الكتاب ـــ الذي فصل فيه «المفردات والاقراباذينات» مرتبة على حروف المعجم، متأسيا في ذلك العلماء الأوائل. ولم يبدع فيه بزيادة أو إضافة، ولعل لنا أن نقول أنه مزج كتابه هذا بغير قليل من الخرافات!

«ولم يزل (داود) متديرا[٢٧] الديار المصرية، يرتع بربوعها النضرة المعزية، الى أن حدى به[٢٨] حادي المسيرة وزمزم، وناداه منادي الحرم فلبى وأحرم، وأقام بمكة دون سنة، ومات بمرض الاسهال عن تناول عنب، سنة ١٠٠٨هـ، عن ست وستين سنة، رحمه الله تعالى»[٢٩].

عشرة أنجم، تألقت في عالم النبات والمداواة به، على مدى سبعة قرون، أو ثمانية، كانت انضر أيام الحضارة العربية الاسلامية.

---

(٢٥) «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» ٢:١٤١، لمحمد المحبي، القاهرة.

(٢٦) تم طبع الجزءين بالقاهرة سنة ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م، وفي هامشهما له كتاب طبي آخر عنوانه «النزهة المبهجة، في تشحيذ الأذهان وتعديل الأمزجة»، ويلي هذين الجزءين كتاب جاء ذيلا «للتذكرة» لأحد تلاميذه (مجهول الاسم)، وفي هامشه أيضا باقي كتاب «النزهة المبهجة»! والمجلد الذي بين يدي هو نسخة مصورة عن تلك، إصدار المكتبة الثقافية ببيروت (د. ت).

(٢٧) تدير المكان: اتخذه دارا.

(٢٨) كذا! والصواب: حدا به، بمعنى ساقه وسيره.

(٢٩) «معجم الأطباء»: ١٩٤، الطبعة الثانية، بيروت ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م (نقلا عن كتاب «فوائد الارتحال ونتائج السفر، في أخبار أهل القرن الحادي عشر»).



ثم أعقبها صمت...

ثم كانت، بعد الصمت، ثورة في العلم، وقفزة في الطب هائلة، غيّرت المفاهيم، وقلبت المبادئ والنظريات. ولكن ظل للمداواة بالأعشاب أنصارها، الذين أخذوا، أخيرا، يستردون لها بعض ما فقدته من مكانة.

وذلك يحتم على العلماء العرب، اليوم، أن يعودوا الى تراثهم النباتي، ينفضون عنه غبار الليالي، ويتدارسونه، ليتعرفوا الى خير ما فيه فيقدموه ويتجاوزوا ما عداه.

وتلك مهمة جليلة، ينهض بها علماء قد امنوا بالعلم، وبالتراث، وبالعمل الدؤوب، وسيلة للوصول الى الغايات النبيلة □



مدللتي

شعر: خليل فواز / القاهرة

أسائلها صمتا يردده الوجـــدُ   تجاوبني صوتا يـدده البعــدُ
مدللتي.. شيدت في القلب حولها   قصورا من الاحلام هدمها الصدُّ
بذلت لها وعدي وليس لها وعدُ   وصنت لها عهدي وليس لها عهدُ
عنادا.. كأن الدهر رهن بأمرها   اذا رغبت ما من اجابتها بدُّ
وحسنا.. كأن البدر يسكن وجهها   وان نجوم الليل في جيدها عقدُ
وتيها كأن الشمس تاج جمالها   وما الحور في جناتهن لها نـدُّ
وكبرا.. كأن لم يخلق الله غيرها   وان الثريا في السماء لها مهدُ

* * *

تصوّب نحوي لحظها في براءة   واذ بك يا قلبي لأجفانها غمدُ
فيا ليت سهما من سهام عيونها   أصاب فؤادي بالصبابة يرتـدُ
اليها بعدوى الحب حتى يذيقها   مذاق الذي في القلب يدمي ويشتدُ
تقاسمنـــي فيها قلـــوب.. وربما   يلذُّ لها صحب هو الضدُّ والضدُّ
تدير حديثا بيننا في رشاقـة   ولا احد منا يغار ويحتـــدُّ
ونضحي اسارى من لذيذ حديثها   ولم ندر من منا أتيح له السعدُ
عجبت لقلبي والصدود طباعها   احبُّ على وجد عليها ولا حقدُ؟!
يعاهدني ألا يعود لحبهـــا   وما صان عهدا بل يعود لها يعدو
كأن قفار الصد بيني وبينهـا   مروج على الأيام تنمو وتمتـدُ
إذا ما بدت يلتاع قلبٌ محرّق   وتتبعها عين أضر بها السهـدُ
تلاحق وجها في طهارة طفلـة   وفي اثم شيطان.. وفي حسنه فردُ
ولي عندها امران.. دربي اليهما   ليال من التسهيد ليس لها عدُّ
قريبان من عيني بعيدان عن يدي   غريبان عن علمي.. هما الثغر والخدُّ

* * *



نهاية المغامرة

بقلم: الاستاذ منذر الشعار/ الكويت



— ويحي، مالك اليوم يا خليف، تعود من المراعي شاردا هيمانا!! ماذا جرى؟
— أماه، لم خبأت عليَّ كل هذه السنين؟
— خبأت عليك!! ماذا تعني بالله؟
— أعني: ناجية.
— ماذا تقول؟...
— ناجية.. بنت عمي.. عروس الرمال، وأزكى ما انبتته من الزهرات الصحراء.

وصاحت الأم:

— تعال.. تعال...

وأخذت إبنها خليفا الى داخل بيت الشعر وجلست لتخبره بالحقيقة التي أخفتها عنه، وشاء القدر أن يكتشف خليف بنفسه ويعلم... ثم.. فُجأة ومباشرة.. يحب.

— تحب يا خليف؟ أو تريد أن تخبرني أنك وبدون انتظار.. أحبيت بنت عمك.
— نعم.. كنت ألمحها في هذه المراعي.. حين أبعد في طلب الكلأ.. فيشتعل قلبي. ثم علمت أن ناسا من غير قبيلتنا إقتربوا ويرعون هناك.. قريبا مما نرعى.. وما زلت أقترب بإحساسي وخفقان قلبي حتى وقعت في هذا الحب المدمر.. ثم بعد الاستفهام علمت.. أن مالكة القلب هي بنت العم.. بهذا تهامس الرعيان وتضاحكت عليه الفتيات.. ثم تحادثنا..
— تحادثتما.. كلمت بنت عمك وكلمتك؟؟

— نعم يا أماه.. فيا لله.. ما كان أزكى الحديث.
قالت الأم:
— فاسمع الآن الحقيقة التي أخفيتها اضطرارا، ويريد أن يكتشفها قلبك اغترارا.. أنظر حولك وفي حالك وفي أنا أمك.. أين نعيش؟.. في حي أخوالك.. في قبيلة أخوالك.. فلماذا؟
قال:
— كل ما أعلمه أنني فقير وقد اضطررت بعد وفاة أبي الى أن تعيشي مع أهلك وهكذا نشأت هنا.
قالت:
— لا، فالآن آن أن تعرف.. كان أبوك رئيسا في قبيلته.. وكان موسرا غنيا.. وكان له أخ فاسد شرير.. هو أبو ناجية.
— فاسد شرير؟؟
— طردته القبيلة غير مرة، وأوشك أن يتبرأ منه أبوك، لولا تعظيم الرحم، لكن أباك عاد الى الحي ذات يوم وهو جريح من غزاة كانت القبيلة تغزوها، ثم مات.. وقبل موته أخبرني أن الوقت ضيق، وأنه يخلف مالا وجاها وولدا صغيرا، هو أنت.. فلذلك، قال: ولأجل هذا استدعيت أخي منصورا. وجاء منصور.. الفاسد.. وبعد أيام من دفن أبيك احتاز كل شيء، وما زال يستولي ويتمكن، في غفوة من الحزم، وارتخاء من الأيام، حتى استبد بكل شيء، ثم طردني وإياك.. الى حي أهلي.. وسيطر هو على مركز أبيك وماله، وكانت ابنته ناجية إذ ذاك صغيرة.. في سنك.
قال الابن مذهولا:
— إذن هذه قصتي.. اعتدى عمي علي، وأخذ مالي واضطرك الى أن تربيني في بيت أهلك..
— نعم يا بني.. وما كنا نستطيع ان نفعل شيئا.. ولقد آثر أخوالك السكوت، وأحيانا.. ينحرف الحق، ويغمط، ويسيطر الباطل ويقوى، وقد تلاعب عمك يومئذ ورشا وابرز شهودا واتكأ على أنه رجل قيم بوصية أبيك.. وغاب الصواب، وضمنا في ثناياه هذا العباب.. عباب الظلم، وطلب المعيشة..
ومسحت الأم دمعات، وأردفت:
— يا للذكريات الأليمة.. ولقد قال أخوالك يومئذ: دعي الولد يسترجع حقه اذا كبر، وكلما كبرت وترعرعت أشفقت أن أخبرك حتى لا تتعرض لحرب ذلك العم الغادر.. واردد في نفسي: ثمن سلامته ونشوئه وعافيته وجماله ما ذهب من جاهه وماله، والحياة تعوّض أحيانا والله تعالى رب كل شيء.. ولكن ها أنت الآن تأتيني.. وتقول: أحببت بنت عمي.. بنت ذلك الذي أخذ مالك وطردك وأمك.

ومرت أيام.. وخليف في دوي مريع من قلبه وعقله وكيانه كله، قام فيه هذا الصراع النفسي العاطفي العقلي.. ثم اندحر فيه كل شيء.. إلا حبه لناجية.

— أماه.. لا مناص.. إن القدر ينسج خيوطه، وإني أجدني بين بابين : إما أن أدخل باب العذاب فالموت ابدا.. وإما أن أتزوج ناجية.
وريعت الأم.. أفبعد كل هذه السنين.. وإنتظار الانتقام.. ينتقم القدر منها بأن يكبل من تعده للانتقام بالاغلال.. أغلال الحب، فيا لهذا حظا وما أعجب تصاريف الحياة.
ورضخت الأم وأهلها.. وهل يملكون إلا أن يرضخوا، فإن الحب طالما دمر بنيانا، وعطل انتقاما، وغير مجرى الأحداث.
ولكن خال خليف قال لأخته:
— ترجي خيرا يا أختاه.. فلعل هذا الأمر يحله الحب والسلم بدل أن تحله الحرب والنصب، فسنؤلف وفدا ونذهب الى عم إبنك في هيأة جد حسنة، ونخطب له بنت عمه.. والرجل حينئذ محرج.. ماذا يقول إزاء حضور قبيلة؟؟ إبن أخيه.. يخطب ابنته.. وهم كلهم يحسون.. حق خليف وشرفه ومكانه من القبيلة.. فنفلح.. ويحل الحب ما لم يحله غيره.
وذهب القوم في وفد الخطبة، وتسامع العم وقبيلته فاحتفل.. ودخل القوم فأكرموا حتى اذا عرضوا الأمر وخطبوا كان العم أدهى وأشد مكرا.. فقد أبدى الرضا وأظهر أنه مجبر في هذه القضية. فإبن اخيه احق ببنته.. ولكنه.. لمعزة البنت، وقيمة الأمر؛ يطلب مهرا من الفتى فرس ابن عساف.
وصاح جوف الفتى خليف وهو مطرق في القوم صامت؛ والمجلس سهوم:
— فرس إبن عساف؟، ويلاه.. هذا شيخ كبير، عزيز بعيد الديار، لا يجرؤ جيش على الاقتراب من حدوده، أفيطلب مني سلب فرسه وهي أعز ما يقتني البدوي من كنوز.. وتلك الفرس معروفة في العرب مشهورة، ثمينة علق سليلة اعلاق، فكيف الوصول وما هذا المهر المهول..
— نعم.. والله نعم.. إن ناجية خليقة أن ترتفع في معزتها عندي الى محل عبلة من أبي الفوارس، فلا يغلو لها مهر؛ ويا مرحبا بالتوجه، الى فرس ابن عساف.
ولاحظ أخوال خليف وهم عند العم الماكر المتصعب طوري ابن اختهم، وهو ساكت مطرق، من الوجوم المصدوم الى التطلع المحموم، وكانوا قد تلعثموا في رد الجواب على العم، فالآن وقد نضج عزم الفتى قاطعهم وأعلن أنه يجيء بالمهر، وقابل للتحدي، ومن الغد هو ذاهب في طريق ابن عساف..
وجادل الأخوال والأم الفتى طويلا بعد عودتهم، وهو مصر متحمس، يقول:
— ما مثلي من يشار عنده الى قمة فيجبن عنها، اراد عمي هلاكي وعجزي وفضيحتي، ولأثبتن له، بعون الله، أن شبل الأساد قد ملأ زئيره الآماد.
ولكن الذي حز في نفس خليف أن ناجية كانت باردة في هذه القضية، لم تقدم باحساسها خطوة، وكأن الأمر لا

يعنيها.. وكأنها توافق أباها أن يتعرض ابن عمها وحبيبها للموت.. ولو أنها، على الأقل، ابتسمت لخليف ابتسامة، قبل رحيله، أو دمعت له بدمعة.. لانطلق سعيدا، لكنه الآن ينطلق متحديا كلا الخصمين: عمه وخطبه.

وسار...

وحيدا سار.. على قدميه.. ترفعه فلاة وتخفضه فلاة، ويحجبه علم ويضمه واد.. حتى أبلى نعلين.. واختفى.. والفضاء والغمام والاكام منتحيات عليه:

فتى من أبناء الرمال.. يسير لهدفه، وتحديه، وكرامة نفسه عليه، وكرامة بنت عمه على قلبه.

ووصل..

وكل طريق لا بد أن ينتهي.. وكان وصوله في المساء، وقد طاب السمر عند العسافيين، فإنسل الى عرين الشيخ.. وتسمع ونظر.. فإذا الشيخ نائم وبنته تقيم سمرا في داره وعندها أتراب، ومع الأتراب شبان من الأقارب والحي.. وسمر الاعراب جميل، والأنس يعمي عيون الحرس.. وطال السمر، وأوغل الليل، وخليف يتلفت ويقيس وينظر ويعاين.. ويفهم.. ويحاول أن يرسم.. ها هي ذي الفرس هناك.. ولكنها في الحديد، والمفتاح في خيمة الشيخ ولا بد من انتظار السمار أن يتفرقوا، ليعمل عمله، ويرى رأيه.. ولكن كيف؟..

وجاءت الفكرة.. نعم...

لقد أخذ السمر ينفض، ويتفرق الشبان والأتراب... وشيئا فشيئا بقيت بنت الشيخ وعرف خليف أن اسمها «فهيدة» مع شاب يتحدثان.. عرف خليف أيضا من تنصته خلف الشجرة أنه إبن شيخ في القبيلة كبيروزير لأبي فهيدة.. وأخذ خليف ينتظر انتهاء حديثهما وتفرقهما ليبدأ عمله.. فالساعة مواتية.. ولكن حديث الفتى والفتاة اشتد.. ثم بان منه ويا للهول أن الفتى يغازل الفتاة.. فتصده بلطف اولا، فيلح فتصده بنهر وزجر، فلا يبالي ويهجم يريد فضحها وتمزيق شرفها.. فأخذت تنصحه وتنادي نخوته وتحاول ستر نفسها بالسياسة وهو حيوان وحش.. فلما هجم الهجمة المردية سادّاً فم الفتاة عن الصياح برز خليف وقد نسي كل شيء وكان شهما ذا نجدة، فعليه إذن أن ينجد ويغيث وبلمح البصر اردى الفتى الفاجر قتيلا بطعنة من خنجره الماضي..

وكان موقفا...

الفتاة ذاهلة، وقد سلم شرفها وقتل ابن وزير أبيها.. وهذا المنجد المجهول من أين برز.. ويا لله.. لولا هو لكان دمارها ودمار أبيها ودمار الحي كله.. وأيضا.. بسرعة.. نسيت كل شيء.. ولم يبق فيها إلا شكرها لهذا الشهم الذي جاء خنجره إنقاذا رائعا لبنت عفيفة.. وقالت لخليف:

— كن من تكون، ولكنك منقذ شرفي، وباني حياتي.. هل أستطيع أن أكافئك..

قال:

— القدر يجري، ونحن ضعاف. الله تعالى لما أراد نجاتك قيضني في هذه الليلة.

— وكيف جئت ولماذا ومن أنت؟

— لا بد أن تعلمي يا بنت الاصول أنني جئت لأغزو فرس أبيك المشهورة. ووجمت لحظة وقبل ان تجيب وتعلق قال:

— قضية تحد، ومهر عروس حبيبة..

قالت:

— حق لك، ولا خاب سعيك، تمشي في الآفاق وتتعرض للهلاك من أجل وصول لمن تحب، وهذا المطروح هنا يريد اختصار الطريق. إسمع أيها الغريب المجهول.. سأتيك بالفرس الآن.. انتظر لحظة.

وغابت بسرعة قبل أن يقول الفتى خليف شيئا.. يا لها من نبيلة.. ستأخذ المفتاح من فراش أبيها وتأتي خليفا بالفرس.. ولكن.. كيف تتخلص من الجثة وماذا تقول في الصباح عن اختفاء الفرس. وأيقظه من هواجسه سنابك الفرس قادمة.. تتجه اليه كالهيكل، والفرس الأخرى، الأصيلة، تجرها من لجامها.. فقد اسرجتها إذن وألجمتها.. يا لهما من فرسين كريمتين.. في حي من ديار العرب.

وقالت فهيدة:

— دونك ما تريد.. فطر بها في طريقك.. أما أنا.. فسهل علي أن أقول.. جاء لص فقتل الفتى وكسر حديد الفرس أو أتى بمفتاح مشابه.. إمض أنت.. ولكن إسمع.. إحذر من آبار محفورة في طريقك من هنا حتى تلك الاكمة..

قال خليف وقد أمسك بلجام الفرس:

— آبار؟.. أية آبار..

قالت:

— هنا.. حول دارتنا لا يسار على خيل.. المكان كله آبار محفورة.. ولا ماء فيها.. إن هي إلا حفر عميقة للحماية.. وتعطيل الهجوم.. لكن إن مشيت بالفرس هونا هونا، ونظرت أمامك.. وبلغت تلك الاكمة.. فقد سلمت.. مع السلامة..

والقى خليف نظرات على فهيدة.. يا لها من فتاة جميلة كريمة.. وارادت هي أيضا إلقاء نظرات.. لكن الوقت خطر.. وأشارت بالانطلاق واختصار النظرات.. فإنطلق..

لكنه.. وهو يسير بحذر لم ينفع الحذر.. وسقط في بئر... ويبدو أن الليلة لم تنته احداثها بعد أما الفرس فكرت الى مربطها راجعة، تضج، ويصل حديدها وقدوطئته، فخرجت فهيدة مذعورة، فعلمت، فأسرعت الى الحفرة تتبع سنابك الفرس.. وصاحت بخليف فأجاب، ولم تكن حتى الآن تعرف إسمه، فالآن سألته فأخبرها، وقالت:

— ألم أحذرك.. قال:

— الآبار كثيرة، والليل مدلهم.

قالت:

— لحظة لآتيك بحبل.

وذهبت مسرعة فجاءت بحبل، وأدلته وقالت إمسك بطرفه، فأمسك، وأخذت تشد، ولكن قوتها فوق أقل من قوة المتعلق تحت.. فحين وقع الشد اختل التوازن وانقلبت الحال واذا بالمنقذة على فم البئر تسقط في البئر في لحظة

خاطفة. يا لها، والله، من ليلة...

الآن صار الفتى والفتاة - كلاهما - في قعر البئر، فأي مصير ينتظرهما وأي عار وأي هول جلل يحيط بهما مع اطاحة الليل. وتحدثا.. أعجب حديث، وهما في قاع البئر.. ولكن القدر ينسج ويتصرف، والانسان لا يستطيع إلا التسليم..

وفي بوادر الصباح.. خرج الخادم مسعود يتفقد.. فرأى الفرس ملجمة مسرجة محلولة من حديدها.. ثم رأى خليفا وبنت سيده في قعر البئر.. فطار صوابه، وهرع الى سيده الشيخ إبن عساف فأخبره.. وصعق الشيخ.. وماذا يعمل؟؟ غير أن يأمر بقتلهما فورا.. وأعطى أمره..

وخرج مسعود يمضيه.. فجمع حطبا وقصد الى البئر وأضحى يلقي الحطبات حتى إذا ملأت البئر أشعلها فاحترقت متضرمة على من تحتها.

إن الصحراء في منتهى القساوة.. أحيانا.. إنها في مجال الشرف وحسن السمعة.. ترتكب الفظائع.. ولكن خليفا كان ذكيا.. والروح المهددة تشتعل حيلة خلاص.. فقد كان خليف وفهيدة كلما رمى مسعود حطبة صعدا فوقها، شيئا فشيئا اقتربا من حافة البئر، وكاللمح — وحين التمكن — وثب خليف ليصرع الخادم ويكتفه، ولكن الخادم المفاجأ المصدوم انتفض بخنجره يريد صدر خليف فراغ خليف وأسرع بخنجره في جنب الخادم فأرداه قتيلا.

وخرجت فهيدة.. تقول.. لو كان عبدا ذكيا لحالفنا وهرب معنا.. لأن أبي كان — بعد قتلنا — سيقتله، ولا تحزن خليف أنك قتلته مدافعة عن نفسك، وهيا الآن...

وانطلقا لا يلويان.. وكان خليف قد أخبر فهيدة أنه إذا نجا ونجت فسيأخذها الى قبيلته وتعيش مع أمه.. وسارا.. وفي الطريق اشترى خليف ذلولا واركب عليه فهيدة.. ووصلا الى قبيلتهما.. وأخبر أهله وأخواله أن من معه لاجئة مسكينة.. وأخبر أمه بالحقيقة.. وترجوا ثلاثتهم فرج الله.. وعاشت فهيدة مع أم خليف.. وخليف يشتعل بها غراما كل يوم.. أما ناجية.. فخفّت من قلبه واختفت.

...تذكر موقفها البارد يوم الفراق، ثم الآن علم أنها نسيته منذ فارق، وأضحت تبتسم لغيره، وتهزأ بعودته وقد علمت بها وتقول: ذهب يطلب فرسا فجاء بمسكينة.. فالحب الآن تحول، ولا بد أن تكون كرامة العربي مشعل حبه.. فقد زحم حب فهيدة حب ناجية، واحتلت القلب وملأت فضاء النفس.

وبعد سنة.. علم الجميع.. أن إبن عساف يمر بديار أخوال خليف في طريق عودته من الحج.. فلعله جاء الفرج.. ونسجت الأم خطة، وأجراها خليف بالحرف.. فأخبر أخواله بالأمر على حقيقته.. وخرج يتسقط خبر إبن عساف، فلما حاذى الديار وأقام للراحة ذهب فدعاه الى مأدبة ومن معه، احتفالا بمروره.. فلبى الشيخ.. وفي العشاء.. والقوم في غاية الاحتفال والأبهة والسرور.. وقد أصاب الشيخ من الطعام الفاخر المنمق، وهبت ريحه وكرم تكريما، وإتكأ للشاي سعيدا محبورا، تقدم خليف، صاحب الدعوة، فجلس وعرض قص قصة يتسلى بها القوم، فأذن له، فأضحى يقص.. يقص قصته.. والقوم عجب والشيخ ينتبه تدريجا.. ويرتاع خفية.. وتنكأ جراحه بلطف.. ولما وصل الحديث الى مصرع الفتى الغادر إذا ببكاء قلتوم يسمع من جنب ابن عساف.. كان بكاء الشيخ وزيره.. ابي الصريع.. والقص يمضي.. ويسمع الشيخ إبن عساف حديث ابنته وبراءتها وعفتها وحفظها في الحي الذي هو فيه.. فلما نضج الحنان تحت نار الحديث صاح الشيخ:

— بالله.. هل ابنتي عندك؟

قال خليف:

— وهي التي، مع أمي، صنعت طعامك. والله يشهد وأمي والحي كله — وقد واكلتهم — ان بنتك أشرف ربات الجمال في بيداء الرمال..

وخرجت الأم الكريمة تحلف وتشهد وتضمن.. وتكلم مشائخ الحي.. ثم خرجت فهيدة في رواء جلالها وديباج عفافها الى أكرم صدر تهوي عليه إمرأة.. صدر الأب الطاهر الكريم.. وكان لقاء لا ينسى..

ثم قال الشيخ:

— ما تريد أن يكون جزاؤك أيها الفتى الأصيل؟

قال:

— أتشرف، وأخوالي.. وشيوخ قبيلتهم.. أن أخطب اليك ابنتك.

قال:

— قد زوجتك.

قال الفتى:

— فالمهر شيء يليق بها.. مائة من الابل كاملة، الأخوال وقبيلتهم مقدموها الساعة.

— أليس الأحق قبل بدء الزواج، أن تسترجع حقك من عمك القاسي.. إني أعطيك فرساني ورجالي.. لتذهب بهم فتحارب المعتدي وتسترجع حقك وكان ذلك..

وتصاغر أهل العم وأهل خليف إذ علموا أن إبن عساف يرسل فوارسه .. وأجبروا العم على تصحيح الخطأ القديم.. ورجع لخليف كل شيء.. وفي لحظة النصر.. جعل عمه في بيت منفرد.. يعيش غير مهان.. لكن.. وحيدا.. وجعل ناجية ابنته.. وصيفة لبنت إبن عساف.. يقول العم لنفسه... وقد سكنت الحال:

— لقد أهجت علي نفسي إذن ابن عساف.. رميت كلمة.. لأبعد إبن أخي.. فجاءت وبالا عليّ.. ويقول خليف لفهيدة في أمسية عذبة في بيتهما الهادىء:

— تبارك الله.. من قعر البئر الى ركن البيت.. وانظري.. رميت أشعة قلبي على ناجية.. فاستخفت بها.. وادركت أنت قيمة الأشعة.. فكنت تحتها الجوهرة..

وتقول الأم لأخيها:

— الآن انتهت المغامرة. وانتهى حزني الكبير.. أنت الآن تزورني في ديار إبني.. ديار أبيه القديمة.. فالظلم لا يدوم.. والصحراء أحرى أن تقوّم المعوج.. وحليتها ابدا: الرجال والأبطال □

إهمال عامل الزمن في النظر إلى اللغة

بقلم : د. كمال بشر / القاهرة

لسنا في حاجة الى أن نؤكد براعة علماء العربية في دراسة لغتهم الفصحى والنظر في جوانبها المختلفة، والوصول من ذلك كله الى حصيلة هائلة عميقة من القواعد والقوانين التي حددت خواصها الأساسية، وضمنت لها النقاء والتفوق على ما حولها من ضروب الكلام الدارج المتّسم بالفردية والصفات البيئية الضيقة. ولقد وصلت العربية بجهود علمائها الى منزلة لم تحظ بها لغة أخرى على وجه الأرض في القديم والحديث معا. ذلك انهم أغنوها دراسة وبحثا وأشبعوها نظرا وتأملا، وجروا خلف ظواهرها يجمعون ويسجلون، حتى حفلت المكتبة العربية القديمة بتراث لغوي ضخم، متشعب النواحي ومتعدد الجوانب.

غير أن النظرة الموضوعية المنصفة تقودنا الى تسجيل بعض نواحي القصور في المنهج الذي اتبعوا وفي طرائق التصعيد التي اختاروا. وذلك إنما يصح اطلاقه فيما لو أخذنا مناهج البحث اللغوي الحديث دليلا للعمل وأساسا للمناقشة؛ وإلا فإن جملة ما أتى به هؤلاء القوم في حد ذاته عمل علمي رائع، وبخاصة إذا ما أخذنا في الحسبان ظروف حياتهم وأدوات معايشهم آنذاك، حيث كانت وسائل المعرفة محدودة وعدد البحث وأجهزته معدومة.

لقد غاب عن علماء العربية أن اللغة يصيبها التطور والتغير، فنظروا الى لغتهم كما لو كانت شيئا جامدا لا يتحرك: نظروا اليها في وضعها الضيق في الزمان والمكان، فلم يحفلوا بماضيها ولم يفسحوا المجال للتفكير في مستقبلها وما عساه أن يكون. وكان من نتائج هذه النظرة أمران بارزان، ظهرت آثارهما في القواعد التي سجلوها للغتهم، وفي مسار هذه اللغة منذ زمن التقعيد حتى وقتنا هذا. وما زالت هذه الآثار تمثل مشكلات حقيقية أمام طلاب اللغة في شتى المجالات.

أما أولهما فيبدو في ذلك الاضطراب الذي نلمسه في معالجة بعض القواعد، صوتية كانت أم حرفية أم نحوية. ففي الأصوات مثلا — على الرغم من أنها أفضل الدراسات اللغوية التي أتوا بها على الاطلاق — نقابل باختلافات واسعة في وصف هذا الصوت أو ذاك، كما نشاهد في أصوات القاف والجيم والضاد والطاء الخ. كان على لغويي العرب في هذه الحالة وأمثالها أن ينظروا الى هذه الأصوات وغيرها في ضوء التاريخ الطويل للغة العربية، على أساس ان هذه اللغة إن هي إلا إمتداد لنفسها عبر زمن طويل مستمر الحلقات. حتى نصل في النهاية الى الأصل أو اللغة الأم، وهي اللغة السامية الأولى. هذه النظرة التاريخية الواسعة كانت ستقودهم حتما الى الاجابة الواضحة الحاسمة، اذ سوف توقفهم على التطور الصحيح او الاصلي لهذه الأصوات، ومن ثم يستطيعون الحكم ما اذا كان هذا الاختلاف في التطور إنما يرجع الى الأصول الأولى او أن تطورا ما أصاب هذا الصوت أو ذاك.

وهناك في الصرف — على ضرب من التمثيل — مسائل الاعلال والابدال التي عالجوها كلها أو جلها بمنهج الافتراض والتخمين، على حين أنها سهلة المأخذ طيعة فيما لو نظرت في إطار الأصل التاريخي لها في اللغة العربية ذاتها، أو في أخواتها الساميات. وكذلك لا نعدم أن نجد تفسيرات مقبولة لبعض مشكلات النحو، تقدمها لنا الأصول التاريخية للظواهر النحوية. وليس فينا من ينكر أن الاعراب نفسه — وهو قمة المشكلات النحوية — يرجع في أصوله الى مصدر تاريخي قديم.

ويتمثل الأمر الثاني الذي أصاب العربية في مسارها الطويل، في فرض القيود الصارمة على حركتها وتفاعلها مع الظروف المتجددة في كل مجالات الحياة من حولها. لقد قرر القدماء وقف الاستشهاد في النحو والصرف في منتصف القرن الثاني الهجري تقريبا، ومنعوا بذلك الأخذ بكلام العرب الذين جاءوا بعد هذا التاريخ في هذين المجالين، بل تجاوزوا هذا الحد وحكموا على كل ما استحدث فيهما بأنه من الخطأ المحض. وإذا ما انتقلنا الى حقل الألفاظ ألفيناهم يخلعون على الجديد منها مصطلح «المولد»، وهو مصطلح يحمل في طياته التحذير، وينبيء عن عدم فصاحة هذه الألفاظ، وعن عدم أهليتها لمواكبة ما ارتضوه وباركوا استعماله من ألفاظ.

وهكذا حرمت اللغة من ثروة غنية من وسائل التعبير

وأدوات الوفاء بحاجات الحياة المتجددة على مدى الزمان الطويل. وظل هذا النقص قائما مستمرة آثاره حتى الآن، وأصبحنا بذلك نواجه مشكلة حقيقية أمام تحديات العصر وما صاحبها من علوم وفنون، تنشد — دون جدوى — المادة اللغوية المناسبة للتعبير عنها وتقديمها الى الناس، خاصتهم وعامتهم، بأسلوب عربي مقبول.

والحق أن إهمال عامل الزمن في النظر الى اللغة العربية وما تبع ذلك من عدم الاعتراف — بطريق مباشر أو غير مباشر — بتطورها وتجددها، كانت له اثار ذات خطر أصابت هذه اللغة في مسارها الطويل عبر الزمن. إن علماء العربية بنظرتهم هذه فرضوا على لغتهم الرسمية عوامل الجمود، وكفوا عن متابعتها ودراستها في بيئاتها الجديدة وفتراتها الزمنية المتلاحقة دراسة من شأنها أن تأخذ بيدها نحو النمو والازدهار. وظهرت في الأفق نظرات الى اللغة تعكس هذا الاتجاه المناقض في حقيقته للخاصيّة الاساسية للغة وهي أنها — دائما وابدا — تقبل التجديد والابتكار، كلما عبرت طريقها من فترة زمنية الى اخرى وانتقلت من جيل الى آخر.

ظهرت حركة «التنقية» أو «التصويب اللغوي»، وكانت مهمتها الأساسية الجري وراء الجديد ومتابعته لبيان وجه الخطأ فيه، وفقا لما سجلوا من قواعد وما انتهوا اليه من قوانين في فترات سابقة لنمط من الكلام حددوا هم مواقعه الزمنية. وفاتهم أن يحفظوا لهذا الجديد قدره وأن يعترفوا أنه إنما صدر عن أصحاب اللغة، وأنهم — أو خاصتهم في أقل تقدير — يصدرون عن لسان عربي، لا يختلف في الفصاحة التي حددوا واختاروا إلا بقدر ما توجبه ظروف الحياة الجديدة وما تفرضه الطبيعة المتطورة للغة. وكلام شأنه هذا واستعمال لغوي صفته تلك يعد فصيحا لا محالة.

كان على علماء العربية — في رأينا — أن ينظروا الى هذا الجديد، لا بقصد تخطئته أو نبذه أو التقليل من شأنه، وإنما بغرض درسه درسا موضوعيا، للوصول منه، أو نمط خاص منه في الأقل، الى قوانين أو ضوابط مميزة له بوصفه ممثلا لعصر زمني معين. وكان عليهم كذلك أن يستمروا في هذا النوع من الدرس والمتابعة لكل الظواهر اللغوية المتجددة على فترات الزمن المختلفة، حتى وقتنا هذا الذي نعيش فيه. وكنا بذلك نضمن الوصول الى ثلاث نتائج مهمة في حياة الأمم وتراثها اللغوي والحضاري.

النتيجة الأولى، وهي أهمها، إفساح الطريق أمام الاستعمال اللغوي للنمو والابتكار بقدر ما يحتاجه الناس في حياتهم من وسائل التعبير، وما تتطلبه أمور حرفهم وصنائعهم المتغيرة بتغير الزمن وتبدل احواله.

النتيجة الثانية، تتمثل في الوصول الى تسجيل علمي ذي بال لتاريخ اللغة العربية، وهو أمر حرمت منه هذه اللغة — دون غيرها من اللغات ذات الشأن — بسبب هذا المنهج الذي أهمل العامل الزمني في دراستها. ولقد كان رجال الأدب وتاريخه أدق نظرا وأصح منهجا؛ حيث درسوا مادتهم وقسموها، أو صنفوا خواصها الى عصور: فهناك العصر الجاهلي، وعصر صدر الاسلام، وعصر بني أمية الخ. وكلها آداب عربية سليمة الشكل والمضمون في نظر العرب جميعا.

ولا يظنُّ ظان أن تطبيق هذا التصنيف الزمني على اللغة يؤدي الى شيء من الفوضى واختلاط الصحيح بغير الصحيح من الكلام. إن هذا التصنيف القصد منه التعرف الى وضع اللغة العربية وأحوالها في تاريخها الطويل، وربط حاضرها بماضيها، أملا في الوصول الى مادة لغوية ديناميكية الخواص والسمات، توائم في جملتها حلقات الزمن المتتابعة وما تنتظمه هذه الحلقات من علوم وفنون متجددة. إضافة الى هذا إننا ما قصدنا بهذا النهج تطبيق هذا التصنيف على كل صور الكلام وضروبه، وإنما أردنا تطبيقه على أنماط خاصة مقبولة من المجتمع في عمومه.

النتيجة الثالثة، ان هذه الدراسة المستمرة للغة لا بد أن تقود في النهاية الى نوع من التعديل أو التجديد في قواعدها وضوابطها العامة؛ بحيث تأتي هذه القواعد والضوابط ممثلة للواقع اللغوي في كل فترة زمنية، وبهذا تصبح اللغة في جملتها قريبة المنال، طيعة المأخذ، ليس في تناولها أو استعمالها أية صعوبة على المستويين العام والخاص معا □

الفكاهة

وأثرها في حياة الفرد والمجموع



بقلم: الأستاذ محمد رجاء حنفي عبد المتجلي / القاهرة

في حياة الأفراد والأمم مراحل من الكد والجد، قد تصل بهم الى حد التعب والاجهاد ولو طال بهم التعب والاجهاد لأوصلهم الى السأم والملل، فلم يكن هناك مفر من فترات تتخلل ساعات العمل المضني، أو التفكير المتصل، يتخفف فيها العاملون من قسوة أعمالهم وما يثقل عليهم.

وليس هذا منصبًّا على من يعملون فحسب، بل حتى على من لا يعملون، ويضيقون بالفراغ الذي يعيشون فيه، ويصبحون في شوق لتغيير نمط الحياة الى حد ما وذلك لتجديد نشاطهم، وإضفاء لون من الجدة على حياتهم.

وخير ما يتجدد به نشاط هؤلاء وأولئك هو الضحك والفكاهة، ولا فرق في ذلك بين طبقة وطبقة، ولا بين كبير وصغير، ولا بين بدوي ومتحضر، فالكل في ذلك سواء، وليس هناك احد يعزف عن الضحك والفكاهة الا لضرورة قاهرة، لا طاقة له بالخروج على احكامها.

والأدب العربي حافل بالضحك، زاخر بالفكاهة في عصوره المختلفة، لما فيها من إمتاع وايناس وإضحاك، وأثر كبير في حياة الفرد، وحياة المجتمع.

تعريف الفكاهة

من معاني الفكاهة في اللغة «المزاح وما يستمتع به من حديث وسواه»، والرجل «الفكه»، و «الفاكه» هو: الطيب النفس المزّاح ، والضحوك والمضحك، يقال: «فكّههم بملح الكلام» أي: أطرفهم، والاسم «الفكيهة»، و «الفكاهة».

والدعابة هي: «المزاح واللعب والمضاحكة»، يقال: «داعبه مداعبة»، أي لاعبه ومازحه، و «الدعب والداعب» اللاعب والمازح.

والمزاح هو: «الدعابة ونقيض الجد»، وهو أيضا «المزاح والمزاحة»، و «المزاح من الناس» أصحاب الهزل والمزح.

والهزل والهزالة: «الفكاهة»، يقال: «وقعت بينهما هزالة» أي فكاهة، و «الهزال والهزيل» الكثير الهزل.

والتهكم هو: الاستخفاف، والاستهزاء، والعبث.

والسخرية هي: الاستهزاء، والسخرة، والضحكة.

وان كل ما يثير الضحك يسمى «فكاهة»، لأن المراد بـ«الفكاهة» هو: كل باعث على الضحك من فنون القول أو الفعل، وان اختلف الاسم.

الحاجة إلى الضحك والفكاهة

لا يستطيع أحد أن يتصور أن الحياة كلها عابسة، مكفهرة المظهر، مقطبة الجبين، وإذا استطاع شخص ما أن يتصورها هكذا فمن الذي يطيقها، ومن الذي يرضاها؟ فالحياة بدون ضحك حمل ثقيل، وعبء لا يحتمل، وهي بغير الفكاهة التي تثير الضحك تصير جافة مملولة.

والضحك هو الذي يخفف ضغط المشاق والمتاعب والآلام التي يتعرض لها الانسان، وعن طريق الضحك ينسى الانسان هموم الحياة، ويلقي بعض أثقالها عن كاهله، ويتحرر من قيودها وقتا قد يطول وقد يقصر.

إن الضحك نزعة غريزية لها قيمتها في حفظ حياة الفرد، وحياة المجموع، ولقد تطورت هذه النزعة من ضحك تثيره أمور عارضة، الى ضحك تثيره أمور مقصودة معدة، وذلك كما يشاهد في التمثيل الهزلي، والتنكيت الذي يعد اعدادا.

متى نضحك وما الذي يضحكنا

إننا لا نضحك من كل أمر مثير للضحك بصرف النظر عن ظروفه وملابساته ومصدره، فلا بد أن يكون الذي يضحكنا إنسانيا، من إنسان، أو الى انسان، أو عن إنسان، ولقد عرف القدماء هذه الحقيقة منذ زمن بعيد، فعرفوا الانسان بأنه حيوان ضاحك ومضحك، إذ أننا كثيرا ما نرى في الحيوانات مشاهد لا نضحك لها، ولو أنها صدرت من إنسان لأضحكتنا.

ولا بد في المضحك أن يتجرد من إثارة انفعالاتنا وعواطفنا، لأن الكلمة المضحكة أو المنظر المضحك لا يضحكنا إلا إذا كانت نفوسنا خالية هادئة، وان أي مجتمع مؤلف من عقول محضة ربما لا يبكي ابدا، ولكنه يظل يضحك، أما النفوس المتأثرة دائما، المتصلة باوتار الحياة، فإنها تهتز للحوادث هزات عاطفية، ولذلك فلن تعرف الضحك ولن تفهمه.

ولقد تنبه «ارسطو» الى هذه الحقيقة، فقرر أن المقصود بالهزل أو المزاح تمثيل الصغار من غير غضب يقترن بهذا التمثيل، ومن غير ايلام للمحاكى، ولذلك قال: «ان المستهزىء تتسم سحنته بالفرح والانبساط، لا بالانقباض والغم والأذى».

والغرض من الفكاهة ليس هو الضحك والاضحاك، بل هو في كثير من الحالات تقويم وتهذيب واصلاح، وذلك عن طريق نقد أنواع من القبح أو النقص، أو الخروج عن المألوف، ويشترط في هذا النقد ألا يجرح كما يجرح الهجاء.

أثر الضحك في الفرد والمجتمع

إن الضحك له أثره الحيوي في الفرد، وفي المجتمع، فأما أثره في الفرد فإنه يتناول نفسيته وأعضاءه، وقد اعتبره الفلاسفة أحد مظاهر الفرح والسرور، أو وسيلة لترويح النفس من متاعب العقل، أو تنفيسا عن الطاقة الحيوية الزائدة عن الحاجة، أو سلسلة أعمال عكسية تساعد على تشنج الحجاب الحاجز، وتقوية الجهاز الصوتي والتنفس.

والضحك احد الغرائز المهمة في الانسان، ونظرا لأنه يستخدم العضلات والأعصاب فله فوائد حيوية هامة، منها: احداث تفاعلات بدنية، تساعد على تجديد النشاط الحيوي، وتولد الاحساس بالصحة، وتزيل الانقباض النفسي.

والأهم من ذلك أن الضحك يغير مجرى التفكير ويجدده بطريقة تمنع الملل والكآبة، وتحدث الراحة العقلية، وكثيرا ما يحدث الضحك في الضاحك فعل الدواء في المريض، ومن هنا كان للضحك فائدتان: احداهما فسيولوجية، والأخرى نفسية.

وأما آثاره في المجتمع فهي قائمة على أساس أن الناس مترابطون في سرائهم وفي ضرائهم، ترابطا اجتماعيا وثيقا، وذلك عن طريق المشاركة الوجدانية، تلك المشاركة التي تتركب من شقين متضادين، وهذه المشاركة هي الدعامة التي لا يتم تكوين المجتمع الانساني بغيرها، ولكنها مع ذلك تحملنا على التألم لألم جيراننا واخواننا والاشفاق عليهم، والرثاء لحالهم.

إن لكل إنسان منا متاعبه الفردية الخاصة التي ينوء بها، فإذا أضيفت اليه متاعب الناس صارت المشاركة الوجدانية عبئا ثقيلا، وصارت اداة للهدم والأذى، وإضعاف القوة الحيوية، بعد أن كانت وسيلة للاجتماع والبناء، فكان من اللازم ان تستنبط الطبيعة حلا لهذه المشكلة، وعلاجا شافيا، فكان الضحك الوسيلة للتنفيس والتخفيف، واسترداد النشاط والاقتدار على الحياة في المجتمع.

اهتمام العلماء العرب بالفكاهة

لقد أكثر المؤلفون العرب من الحديث عن الفكاهة وبيان آثارها، والاتيان بالكثير من الفكاهات في مؤلفاتهم الهازلة والجادة، وتحدثوا عن الضحك كثيرا، فالجاحظ يقول في مقدمة كتابه «البخلاء» ما نصه: «ولك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء: تبين حجة طريفة، أو تعريف حيلة لطيفة، أو استفادة نادرة عجيبة، وأنت في ضحك منه اذا شئت، وفي لهو اذا مللت الجد».

ويتخذ أبو حيان التوحيدي من الفكاهة وسيلة للضحك، وبعث السرور والنشاط، وإعداد النفس للتلقي والاستيعاب، فيقول في كتابه «الامتاع والمؤانسة» ما نصه: «النفس تمل، كما أن البدن يكل، وكما أن البدن اذا كل طلب الراحة، كذلك النفس اذا كلت طلبت الروح — أي: الراحة، وكما لا بد للبدن أن يستمد ويستفيد بالجمام — أي: الراحة، كذلك لا بد للنفس من أن تطلب الروح عند تكاثف الملل الداعي الى الحرج».

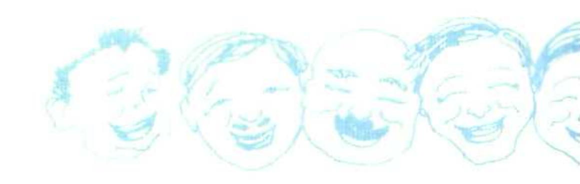
أما عن إبن عبد ربه، فقد رأى في كتابه «العقد الفريد» ان: «الفكاهات والملح نزهة النفوس، وربيع القلب، ومرتع السمع، ومجلب الراحة، ومعدن السرور»، وهناك كثير من المؤلفين تناولوا الفكاهة والضحك في كتبهم، مثل النويري في كتابه «نهاية الارب»، وابن قتيبة في كتابه «عيون الأخبار».

بيد أنه مما لا شك فيه أن الجاحظ هو أستاذ هؤلاء جميعا، وهم محاكون له ومتأثرون به، ولقد سبقهم بتصويره الرائع للبخلاء في كتابه «البخلاء»، وسبقهم في ايراد فكاهات مختلفة في مؤلفاته كلها وفي رسائله.

الفكاهة في الاسلام

إن الفكاهة المأثورة في الاسلام هي التي ترتفع عن بذىء القول، والكلام الرذيل، والنيل من الناس، اذ لا فرق بين جرح اللسان وجرح اليد على حد تعبير القلقشندي، والى هذا يشير علي بن أبي طالب — كرم الله وجهه — في بعض ما نسب اليه من الشعر بقوله:

فرب كلام يمضّ الحشا
وفيه من الضحك ما يستطاب



وقالوا: «إياك وما استقبح من الكلام، فإنه ينفر عنك الكرام، ويجسر عليك اللئام».

والفكاهة مفهوم من مفاهيم الاسلام، ولقد خص المولى تبارك وتعالى أهل الجنة بصفة الفكاهة، وجاء ذكرهم بهذه الصفة في موضع واحد من القرآن الكريم، وذلك في قوله عز وجل: ﴿**ان اصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون**﴾[1]. ويقول جل شأنه في وصف الأبرار وحسن جزائهم يوم القيامة: ﴿**فوقاهم الله شر ذلك اليوم، ولقاهم نضرة وسرورا**﴾[2]. وفي انكار العبوس يقول الله عز وجل: ﴿**عبس وتولى**﴾[3].

ولقد عرف عن رسول الله ﷺ، أنه كان يتفكه ويطرب للفكاهة، وكان يضحك حتى تبدو نواجذه، ومما يروى في ذلك أنه عليه الصلاة والسلام جلس ذات يوم يأكل تمرا مع علي بن ابي طالب، كرم الله وجهه، فكان كلما أكل تمرة وضع نواتها في قصعته، وفجأة قال له: «يا علي: ما أعجلك بأكل التمر، وما أكثر أكلك منه؟!»، فقال علي: يا رسول الله: أعجل مني من يأكل التمر بنواه».

ولم يكتف الرسول، ﷺ، بالطرب الى المزاح، بل كان هو نفسه يمزح مزاحا يليق بجلال النبوة، فمن مزاحه قوله لامرأة من الأنصار: «**الحقي زوجك ففي عينه بياض**» فأسرعت المرأة الى زوجها وهي مرعوبة، فعندما رآها قال لها: «ماذا دهاك؟»، فقالت: «قال لي رسول الله، ﷺ، ان في عينك بياضا»، فقال لها زوجها وهو يبتسم: «ان في عيني بياضا لا لسوء».

لقد كان المصطفى، ﷺ، يمزح، ولكنه لا يقول الا الحق، مصداقا لقوله ﷺ: «اني لأمزح، ولا أقول الا الحق»، ولهذا نجد الفكاهة المروية عنه كلها من التورية أو الكناية.

وكما ضحك رسول الله، ﷺ، ومزح، ضحك صحابته ومزحوا، واشتهر الكثير منهم بدعابته، وبحبه للفكاهة اللطيفة، وحسن النادرة.

وكثيرا ما كانت الفكاهة والظرف سببا في النجاة من العقاب، فقد روى أن أبا نواس اقترف جرما وأمر الأمين بحبسه، ولكي يحصل أبو نواس على العفو إلتجأ الى ظرفه، وما جبل عليه من الفكاهة، فدعا احد غلمان السجن وكان بليدا، وقال له: «اتريد أن أحسن اليك فأحمل الخليفة على أن يخصك بجائزة؟»، فقال الغلام: «نعم»، فقال له: «إذن فاذهب الى الحلاق، ودعه يحلق لك شعر رأسك جيدا، وتعال لي لأنهي لك البقية».

ففعل الغلام ما أشار به عليه أبو نواس، وعندما حضر اليه كتب على رأسه بعض أبيات، وقال له: «إذا بلغت القصر فصح قائلا: نصيحة لأمير المؤمنين»، وحينذاك سيفسح لك المجال حتى تدنو من أمير المؤمنين، وتدعه يقرأ ما كتبته لك على رأسك من رجاء لاكرامك»، وهذه الأبيات هي:

بك استجير من الــردى
متعــوذا من سوء بـأسك
من ذا يكون ابو نوا
سك ان قتـلت ابـا نــواسك

ثم كتب تحت الأبيات: «إذا قرأ أمير المؤمنين الرقعة فليمزقها»، فضحك الأمين من فعل أبي نواس، واطلق سراحه.

وبعد

إن الفكاهة لا تستملح من أي فرد، وإنما تستملح من الفرد الفكه، الموهوب، البارع في تصويرها، والقادر على التعبير عنها وتمثيلها.

وكثيرا ما تحتاج الى البديهة المسعفة، والجمل القصار، واللفظ الخفيف، حتى لقد يفرغ القائل منها في الوقت الذي يبدأ فيه السامعون أو القارئون يلمحونها ويضحكون منها، وغالبا ما تعتمد على تخيل يربط بين متناقضين، أو يذكر بمثير للضحك، أو يجسم المعنى ويضخمه.

وإذا كان هناك بعض الكلمات المنسوبة لبعض الحكماء من العرب، تنفر من المزاح، وتبغض الفكاهة، إلا أننا نرى أن القصد من الفكاهة والمزاح أليق وأنسب بالمضحك والضاحك.

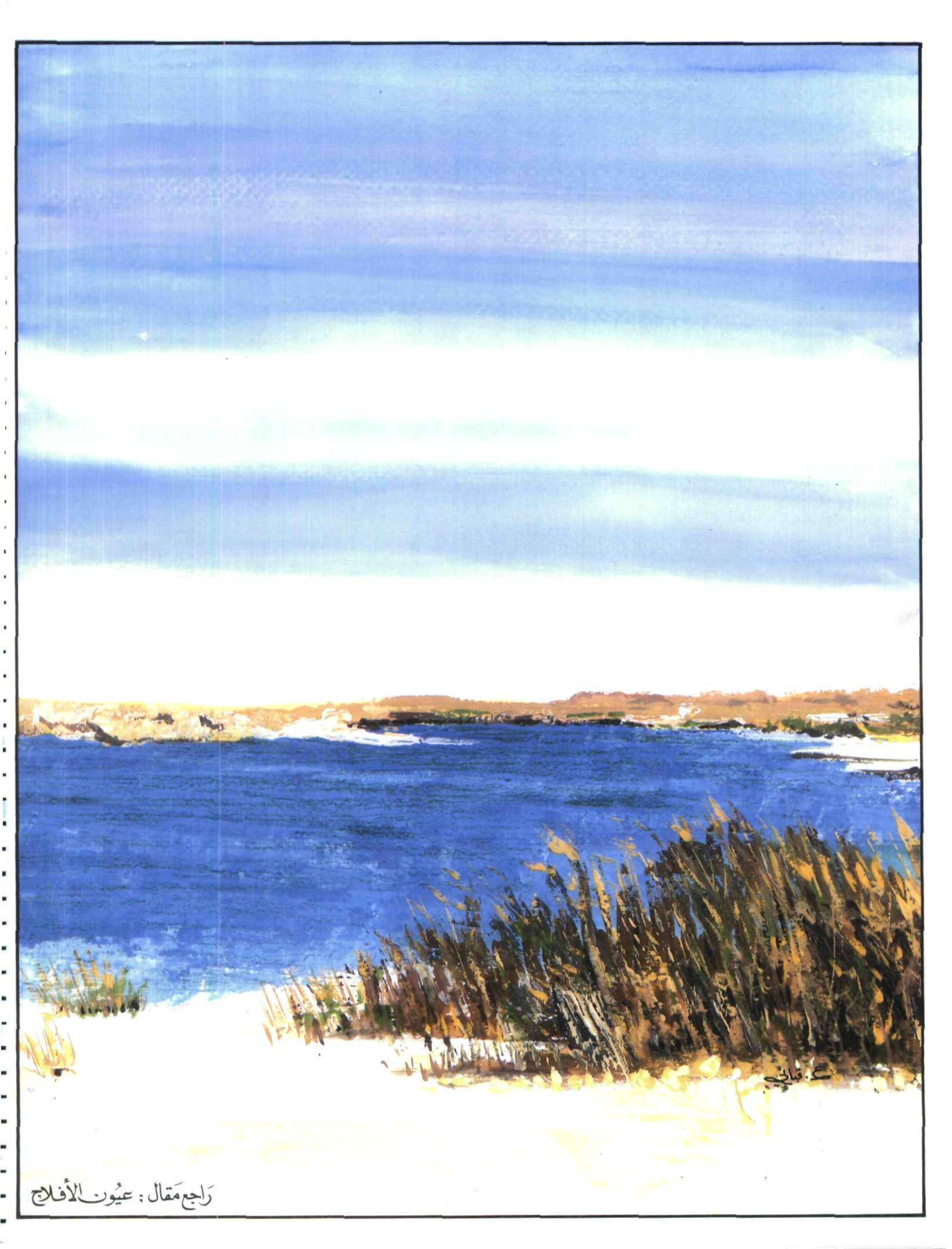
وللجاحظ رأي في ذلك، إذ يقرر أن «للمزاح موضع، وله مقدار، متى جاوزهما أحد. وقصر عنهما أحد، صار الفاضل خطلا ـــ أي: خطأ، والتقصير نقصا، فالناس لم يعيبوا الضحك إلا بقدر، ولم يعيبوا المزاح إلا بقدر، ومتى أريد بالمزاح النفع، وبالضحك الشيء الذي جعل له الضحك، صار المزاح جدا، والضحك وقارا»□

---

(١) سورة يس/٥٥.
(٢) سورة الانسان/١١
(٣) سورة عبس/١.



راجع مقال: المدرسة الاندلسية



رَاجع مَقال : عيُون الأفلاج